باب النديم

رواية

آية ياسر



دار اكتب للنشر والتوزيع



باب النديم

باب النديم

آية ياسر
الطبعة الأولى . القاهرة 2019 م
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد رجب عواد
رقم الإيداع : 26146 /2018
I.S.B.N: 978-977-488-611-9



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

"وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ".

(سورة الأعراف 198)

***

" لأَنَّ قَلْبَ هـذَا الـشَّعْب قَـدْ غَلُـظَ، وَآذَانَهُـمْ قَـدْ ثَقُـلَ سَمَاعُهَا. وَغَمَّضُوا عُيُونَهُمْ. لِئَلَّا يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ، وَيَسْمَعُوا بِآذَانِهِمْ، وَيَفْهَمُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ. "

(إنجيل متى 13 : 15)

الكاتب

خلا الكون من الحياة، فاستوحشت المكان والزمان، وحوصرت ما بين كائن وكان.

أحاول كتابة أي شيء،لكن الحبر قد جف من القلم، واشتد بداخلي الألم، وأصبح صعبًا الوصف.

أوشك الليل على انتصافه.

ماذا أسمي نفسي؟ ضائعًا؟

هي مجرد كلمة، ربما تشير إلى بعض مما أشعر به ، فلنضِف إليها تائهًا؟ أو مشتتًا!

أريد شيئًا ليس موجودًا،وأحتاج إلى احتضان صورتي التي في المرآة، فلا الذي أريده موجود، ولا الذي أحتاجه ممكن.

يا الله! أين أنت؟ من أنت؟

ظننت أنك في كل النواحي لا تزول، وبزوال ذاتي، زلت أنت. أين أنت؟

في قلبي غصة ووجع فلتنتزعهما.

خذهما إليك.

كن بجانبي.

أين أنت؟

ومن أنت!

***

تصفحت روايتي سيتندال، التي كتبتها وأنا في عمر الثامنة والعشرين، أي من عشرة أعوام، والتي لم تلقَ أي نجاح، وكنت في افتتاحيتها أقول:

دائمًا ما أتخيل الله واقفًا أمام مرايا متناهية العدد، بعضها بجانب الآخر، وبعضها مقابل لبعض، بعضها مجلو، وبعضها شديد الإعتام، وبعضها له جانب مجلو والآخر معتم ومشوش لا يمكنه عكس أي شيء.

المجلو منها يعكس صورة الله وصفاته، فإن كان هذا النوع يقف قبالة الله فقط، فحينها لا يرى إلا الله، ومن ثم لا يعكس غيره، أما إن كان يقابل في موضعه وحركاته مرايا أخرى، فقد يعكس أيضًا ما يظهر من المرايا التي يقابلها،ويساعده في هذا جلاء مرآته،فيكون كالباب، يرى المرايا الأخرى، ويُرى فيه الله.

على سبيل المثال: عيسى ابن مريم -عليه سلامًا- كان جلي المرآة، قريبًا إلى الله يعكس صورته كاملة، لكن قربه إلى الله كان شديدًا، سواء كان قد صلب فافتدى بصلبه البشر، فاقترن بالآب في السماء على حسب القناعة المسيحية، أو بالقناعة الإسلامية كان قد رُفع إلى الله ولا يزال حيًّا،

فهو كلمة الله، فلم ينغمس في الأمور الحياتية كالحروب وحب النساء والسياسة وما إلى ذلك، أي إنه خلا من الصورة البشرية -عدا الجسد- بشكل لم يسبقه إليه أي مخلوق.. على حسب ما قد وصل إلينا من معلومات.

وبما أنه ما زال حيًّا في الدين الإسلامي، أو حيًّا في السماء بعد صلبه في الدين المسيحي، المهم أنه حي على كل حال، فلذا يمكن لمرآته تخليص المرء من خطاياه في حياته الدنيا، بالاقتراب منه ومن تعاليمه، فهو (المسيح) لا يلتفت بمرآته إلا للملتفت إليه، الذي يذهب بنفسه ويسعى باتجاهه، وهو نفسه الساعي إلى الله لأن المسيح قريب من الله حد الالتصاق.

"قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي." (إنجيل يوحنا(8: 42)

فأما محمد بن عبد الله -عليه سلامًا-، فهو بالطبع مرآة مجلوة قد عكست صورة الله، وربما يكون هو أجل مرآة، والحقيقة المحمدية قد سبقت جميع الأنبياء كما يقول علماء الصوفية استنادًا إلى الحديث:

" كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين."

لكنه أيضًا قد عكس صورة البشر، حيث تزوج وحارب، وامتثل إلى جميع الأمور الحياتية.

ويقابل الخلاص في الدين المسيحي فكرة قريبة منها بعض الشيء، ألا وهي الشفاعة في الدين الإسلامي، وبما أن نبي الإسلام محمدًا قد مات كما يموت الناس، فانطفأت مرآته من الحياة الدنيا، فلذا شفاعته تتحقق بعد الموت.

والشفاعة في الدين الإسلامي لا تتحقق إلا من اتخذ عند الله عهدًا، والعهد في الدين الإسلامي هو الإيمان بالله، وتصديق رسوله، والإقرار بما جاء به، والعمل بما أمر به.

"لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا" .

مريم (آية: 87)

وسواء كنت مسيحيًا أو مسلمًا أو من أي دين كان، فالطرق متعددة، تؤدي إلى الله، الأعمال هي الحركة التي تدفعك إما إليه لتتجلى مرآتك، أو تكون أعمالاً خبيثة فتبتعد، والأديان والمذاهب هي طرق مختلفة رسمها الرسل ومهدوها للعامة، ليصلوا إلى الله.

وفيما بعد، ماذا عن وجود الله معنا جميعًا في كل آن، وأينما كنا؟

فلنقل إنك دخلت بيتًا من المرايا، ووقفت مقابلاً لهم جميعًا في نفس الوقت، فإن صورتك ستكون موجودة بداخلها جميعًا، في نفس الآن.

وفكرة الروح التي نفخها الله فينا لنحيا، تثبت وجود ولو جزء منه بداخلنا جميعًا. هو الواقف أمام المرايات؛ ولذا هو معكم أينما كنتم.

لماذا لم يظهر أنبياء إلا في الشرق، أو على حد علمنا؟

أرى أن المسمى فقط هو الشيء المختلف.

كل الناس ممكن أن يُوحى إليهم، كل الناس مرايا، ولكن اختلاف الأزمنة والأماكن، أدى إلى اختلاف المسميات، ربما الوحي أصبح هو الفكر أو الخاطرة، والنبي هو المعلم الذي يلقي تعاليمه على أتباعه، وربما هو الفيلسوف أو العالم. كتب الله ربما هي كتب الفلسفة والحكمة والعلوم، وكلام الله هو ذاته الحديث الفهواني، أو شكل من أشكاله، وهكذا...

***

لا يمكنني النوم..

بعدما تلقيت مكالمة هاتفية من صاحب دار النشـــر يخبرني فيها أن الطبعة الثانية من روايتي (العقاقير) قد نفدت وأنه بصدد طباعة الثالثة، فلذا وجب علينا الالتقاء قريبًا للتحدث في بعض التعديلات.

استرحت على أريكتي أمام التلفاز غير منتبه إليه، فنبّهني شجار ما بين ضيفين في أحد برامج الهواء، لمذيعة لا تجيد التحاور لكنها حسنة المظهر، وترتدي نظارة لترسل إشارة للعامة بأنها على قدر من الثقافة.

فور انتباهي لهما، أعلنت المذيعة عن تقرير مصور ثم فاصل إعلاني.

المراسلة من التقرير:

البعض سيعتقد أن ما سنراه خرافة، ليكن.. أليس لكل خرافة وجه من أوجه الحقيقة، حتى حديث خرافة الجهني نفسه، أعلمنا أو تيقنا إن كان صادقًا فيه أم كان يكذب؟

(لا بد أن هذه المراسلة قد سمعت عن أصل كلمة خرافة فودّت أن تبهرنا بمدى ثقافتها).

تستكمل المراسلة الحديث، ونرى صورًا لمقام بمحافظة القليوبية:

مركز ومدينة الخانكة محافظة القليوبية، بمـــصر. في صحراء سرياقوس، أنشأ الملك محمد الناصر بن قلاوون خانقاه (دارًا للصوفية يقوم فيها بالتعبد، ومن هنا أتى اسمها)، وبنى بجوارها مسجدًا وحمامًا وقصورًا وبيوتًا جميلة، وكان ذلك في العام الخامس والعشـــرين بعد السبع مئة من الهجرة، ومن يومها أقبل الناس على البناء والسكن في هذه المنطقة.

بيت النديم،الملحق بمقام سيدي عمر بمحافظة القليوبية، هذا الحي الذي سُمي بمرور الوقت بحي الكُتَّاب، لأن كل أهله يكتبون عن أنفسهم منذ أربعين عامًا، يعيشون تمامًا كما يعيش كل الناس، لا ينقصهم ولا يزيدهم شيء إلا الكتابة، التي أوشكت أن تكون فطرتهم. النديم هو الشيخ الذي بُني البيت على قبره، يقال أنه رجل مبارك كسيدي عمر، الذي يصل نسبه إلى الصحابي عبد الرحمن بن عديس، يظن سكان المنطقة هنا أنهم إن كتبوا وألقوا ما كتبوه في البيت، زال همهم.

كان يلجأ إلى المبنى المسلمون فقط إلى أن مات حارسه الذي كانوا يستفتونه في أمورهم بعد الكتابة، ويطلبون منه الدعاء، فبعد موته أصبح البيت للجميع، وأحيانًا يزوره ويلقي فيه الأوراق غرباء من دون أهل الحي.

قالت المراسلة:

- نلتقي بأحد المترددين إلى البيت.. قل لي يا حاج، ما قصة هذا البيت؟

- دا بيت مبروك، بنرمي فيه همومنا لنرتاح.

- وماذا يوجد بداخل البيت؟

- همومنا ..

ضحكت المراسلة وهي تقول:

- غير همومكم يا حاج، هل يوجد شيء بداخل البيت؟ هل دخل أحدكم إلى البيت يومًا؟

لا طبعًا! دا بيت مرصود، مينفعش حد يدخله، أظن الشيخ حسان كان بيدخل، لأنه مبارك برضه الله يرحمه، لكن البيت ملوش باب.

- وانفعل الرجل فجأة وهو يضيف:

- بس أنا خايف، البيت هيفقد بركته، لأن المسيحيين بقوا بيرموا فيه همومهم معانا.. آه هما إخواتنا طبعًا بس ميصحّش يعني..

قاطعته المراسلة بقولها السطحي:

- آه أكيد إخواتنا وشركاءنا في الوطن طبعًا لازم وزارة السياحة تهتم بالأضرحة، لأنها مهما كان أثر مهم، ونحن نناشد المسؤولين بالاهتمام بأمر هذه المنطقة وأهلها.

شردت بذهني، ماذا لو ذهبت إلى هناك ودخلت البيت وقرأت كل ما بداخله، سيصلح هذا عملًا قصصيًا بديعًا، وأضيف في المقدمة أنها قصص حقيقية فتزداد متعة القارئ، وخصوصًا أنني أعجز عن الإتيان بأي فكرة حاليًا.

لكن الرجل قال أن البيت ليس له باب. عمومًا، المكان يبدو شيقًا على أي حال، وربما صادفني الوحي هناك، أو تذكرت في ازدحامه ما أنساه.

عاد البرنامج بعد الفاصل، وابتدأ أحد الضيفين بالحديث وقال بحسم ردًا على سؤال المذيعة:

– هل نستطيع أن نقول إن هذا المكان مقدس؟

– المقدس هو في اللغة يعني المطهر والمبارك ولا عيب في استخدام الكلمة.

قاطعه الضيف الآخر، وقال بصوت محتدم وعال:

– مبارك ممّن؟ ماذا تقول أنت؟ هذه التأويلات والفتاوى الخاطئة، سنحاسب عليها أمام الله، هذه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

علا صوتهما فما عدت أفهم ما يقولان،واتهم كل منهما الآخر بالجهل، فأغلقت الجهاز، وتهيأت للنوم.

إنها الثانية بعد منتصف الليل، وتأبى عيناي الإغفاء.

بعد مكالمة طويلة أخرى من الناشر، ظل فيها مُصِرًّا على أن أذهب معهم في رحلة إلى دهب، وقد وافقت بعد رفضي التام، حينما أطال ضغطه عليَّ، وحينما قيدني بحل كل الحجج التي اخترعتها للتملص منه، وانتهت المكالمة على أنه سيهاتفني الساعة الثامنة صباحًا.

قد أدركتني حرفة الكتابة منذ فترة، فكتبت روايتين في أول حياتي، ولكن لم يقرأهُما أحد، فاضطررت لمواكبة حالة الثقافة المزرية العامة، فبدأت بكتابة ما يريد القارئ..

وبرغم شهرتي وانتشاري، فإنني غير ممتن وغير راضٍ عن أي كلمة قد كتبتها، ولا أرى في نفسي إلا ذكاء بائع الحلوى، الإفراط منها ربما يضر، لكنها لذيذة الطعم، والطلب عليها بكثرة.

أشاهد كثيرًا من الأفلام العالمية، وأستخلص منها بإتقان بعض المشاهد التي أستخدمها بداخل فكرة مختلفة، ثم أقرأ الكثير من المعلومات عبر الإنترنت، ثم أضيف من الحالات النفسية والاجتماعية المنتشرة في مجتمعنا، ولا مانع من استجلاب العفريت المخيف الأكبر وهو الإلحاد، والمارد المتواري الممتع وهو الجنس، وتقوية الرواية بنصائح التنمية البشرية المشهورة، ثم نقش أساليب التشويق وبعض الخوف اللذيذ من بعض الروايات الأجنبية المغمورة، لتتشكل رواية متكاملة الأركان..هي لا تُسمن ولا تغني من جوع، لكنها تُمتّع القارئ المراهق.

انفصلت عن زوجتي منذ مدة قصيرة، ولا أتذكر سبب الانفصال ولا أعلم إن كان نسياني هذا، لخلل ما قد حدث في عقلي أم بسبب كثرة

شرب الخمر، ولا أجد حتى من يذكرني. فهي لا ترد على مكالماتي، وليس لي أبٌ ولا أمٌّ يحكيان شيئًا، فكلاهما مات.

جسدي يحتاج إلى النوم، لكنه يمتنع عني ويختبئ.

النوم مهم لأنه يعيننا على تحمل إعياء الجسد، وهو الذي يهوّن علينا غربتنا في هذه الدنيا. هو الوصل الواجب ما بين الحقيقة التي نظنها وهم، وبين الحياة الدنيا التي نظنها حقيقة وهي وهمًا.

حوصرت ما بين صعوبة الإغفاء والملل، أتقلب على الفراش ثم أطيل النظر في هاتفي المحمول، وأستمع إلى بعض الأشعار على المشغل الموسيقي الصغير، لماذا لا أفكر أبدًا في توصيله بالسماعات الضخمة التي بالحجرة ولم أستخدمها قط؟

لقطات من الحياة أراها بلمسة من إبهامي على شاشة المحمول، شاب يسب النظام، وامرأة تضع صورة لوردة خوفًا من الفتنة، أو ربما رضوخًا لأمر أبيها أو زوجها، أخبار الفن، مقاطع مضحكة، ومن تحتها تعذيب أطفال في حضانة ما. كل الأشياء مكررة حتى وإن اختلفت الأحداث لا إفادة إلا التسلية وبعض الأخبار، وقد مللت حتى من التسلية، وسقمت من كل أنواع الأخبار.

ماذا أريد الآن؟ أريد أن أبحث عن ظهور مفهوم وحدة الوجود من قبل ابن عربي.

ماذا لو كانوا قديمًا يمتلكون هذه الأشياء؟ ترى هل كانوا سيستمرون في الاطلاع الذي كانوا يرتحلون ويستميتون بحثًا عنه؟ أم أنهم سيزهدونه لأن مالك الشيء لا يعتني بما يملك!

نعم، ما دام قد قادهم عقلهم إلى الارتقاء بالعلم، وزادهم العلم شغفًا للمعرفة، فسيبحثون مهما كانت طريقة البحث.

الحال هو الحال،سواء توفّرت المعلومات بطريقة سهلة أو بطريقة تحتاج بعض المشقة، الدائرة مرسومة من قبل وجود الأولين. ابن النفيس وابن سينا والفارابي لم يتركوا علمًا للعامة بل تركوه للخاصة، وكذلك زويل وطه حسين والعقاد. لكنهم تركوا للعامة آلية الانتفاع بالعلم. العامة يحتاجون إلى الأكل والجنس والنوم وبعض وسائل الترفيه التي اختص بها الأغنياء منهم، ومصاريف الأطفال الذين سيحتاجون لاحقًا إلى ما احتاجه آباؤهم، وربما مصادفةً، يأتي من نسلهم بعض العلماء. لكن لولا وجود الخاصة لما عاش العامة، لولا الطب الذي صنعه الخاصة لما عولج العامة، لولا الهندسة والرياضيات والفلسفة والفن وشتى العلوم، لكان البشر الآن مثل القردة في هيئة أبهى.من ابتكر الكتابة التي صنعت الحضارة وخط أول خط في تاريخ الإنسانية لم يكن من العامة، بل كان إنسانًا، خاصًّا صاحب وحي وصاحب معرفة.

الملل يولد الكسل فيقودك إلى ملل أكبر، فتحبس في دائرة تقودك إلى الخبل، وتزداد بك العلل.

إنها السادسة صباحًا..

بدأ النعاس يتسلل إليّ، وبدأت عيناي تنغلقان، وكنت أقرأ حينها على أحد مواقع التدوين:

"إن فكرة وحدة الوجود قديمة جدًّا، فقد كانت قائمة بشكل جزئي عند اليونانيين القدماء، وهي كذلك في الهندوسية الهندية، وانتقلت الفكرة إلى بعض الغلاة من متصوفة المسلمين، من أبرزهم محيي الدين بن عربي."

أعدت قراءة الجملة مرارًا لأنني كنت ما بين اليقظة والنوم.

ابن عربي من الغلاة؟! لماذا؟

كنت على وشك فقدان الرغبة في النوم حينما انتبهت للقراءة، فأطفأت الهاتف المحمول هروبًا من صديقي الذي اتفق معي عنوةً على السفر، ونمت...

ورأيتني أمشـــي وحيدًا حافي القدمين متباطئ الخطى على شاطئ بحر، لا يمكنني تحديد مكانه، فلا يوجد به أي معالم، كنت أمشي غير منتبه للبحر، حتى نظرت إليه، فوجدته أسود اللون.

تمشيت كثيرًا حتى بدأت أنفاسي في التصاعد، ووقفت حينما رأيت ثلاثة رجال، فاقتربت منهم.

علمت فور اقترابي، أنهم العظماء.

أولهم كان ابن عربي الفيلسوف المسلم، وثانيهم باروخ سبينوزا الفيلسوف الهولندي اليهودي، وجوردانو برونو، المسيحي الذي اعتبرته الكنيسة مهرطقًا فأحرقته، كانوا جالسين على الرمال قبالة البحر الأسود،

وكان لونه يتغير تدريجيًا إلى الأزرق الشفاف ويتوسع في أثناء حديثهم الذي بدا كأن كل واحد منهم يتحدث لنفسه لا للآخرين، وأنا واقف قبالتهم لا يعيرونني انتباهًا.

الشيخ الأكبر بعمته البيضاء وعباءته الخضـــراء، التي كلما نظرت لها، تسللت إلى أنفي رائحة الياسمين، له لحية طويلة ناعمة، وشارب عريض يخبئ فمه الصغير، قال في صوت خافت ورقيق وهو يتطلع إلى السماء بعينيه الهادئتين:

"يا خالق الأشياء في نفسه، أنت لما تخلقه جامع تخلق ما لا ينتهي كونه، فيك فأنت الضيق الواسع."

ثم تبعه باروخ ذو الشعر الأكرت الغزير، وكأنه هالة سوداء حول رأسه:

"ما في الوجود إلا الله، فالله هو الوجود الحق، ولا وجود معه يماثله، لأنه لا يصح أن يكون ثم وجودان مختلفان متماثلان، وإن قوانين الطبيعة وأوامر الله الخالدة شيء واحد بعينه، وإن كل الأشياء تنشأ من طبيعة الله الخالدة."

وقال آخرهم، ذو الشعر الناعم، والأنف الحاد، والعينين الجاحظتين، وكانت ملامحه وهيئته أكثر وضوحًا لي، لأنني رأيت صورة تمثاله في ساحة كامبو دي فيوري بإيطاليا، الذي بنته الكنيسة ربما للتعبير عن ندمها على ما فعلته به:

"الله هو المادة العالمية في كل الموجودات، وهو الذي يضم كل الأشياء. إنه ينبوع كل الوجود، وفيه كل شيء موجود.

النور الإلهي دائمًا في الإنسان، يعرض نفسه على الحواس والفهم، لكن الإنسان يرفضه."

شردت في الحلم، ووجدتها فرصة لن تتكرر لأسألهم عما يشغل فكري هذه الفترة، وهي فكرة التناسخ، واقترابي من القناعة بها.

يا..

لم أجد شيئًا لأناديهم به فتعثرت، لكن جوردانو برونو كان قد التفت إليّ فسألته:

– ماذا ترون في تناسخ الأرواح؟

ورد الملتفت الوحيد إليّ وقال:

– كل الأشياء موجودة في الكون، والكون في كل شيء، نحن فيه، وهو فينا، وبهذه الطريقة يتفق كل شيء في وحدة كاملة.

وأضاف..

– الروح ليست هي الجسد وقد تكون في جسد واحد أو آخر، وتنتقل من الجسد إلى الجسد.. كهذا.

وأشار إلى شيء بجانبي، فنظرت فإذا بي أنظر إلى فأرًا، لا يختلف عن هيئة الفئران في شيء، لكن ملامح وجهه كانت تشبهني بشكل خاص،

وتشبه ملامح وجه الإنسان بشكل عام، ثم إنني وجدت روحي تنسلب وكأنني أسقط من مبنى مرتفع.

وصحوت على صوت جرس الباب.

فكرت في ألا أفتح، ولكن لربما يكون أمرًا مهمًّا، ففتحت ويا ليتني ما فعلت، قد كان صديقي الناشر وسأسافر معه لا محالة...

الطريق طويل إلى دهب، وسأقطعه بملل مع صديقي الثرثار وسأهرب منه لأفكاري وذكرياتي وحدي،ربما يساعدني الطريق والسفر على التذكر.

آنسني في الطريق صوت أم كلثوم حتى وصلنا السويس، ثم موسيقا عمر فاروق التي تطيح برأسي، تكلمت مع نفسي بغير صوت؛

يا أنا لماذا تركتك زوجتك؟

لا أعلم ...

ما آخر شيء تتذكره بينك وبينها؟

أتذكرها تقول لي:

إنني فاشل ومريض وغير مسؤول.

ثم ماذا؟

لا أعلم.

ألا تريد أن تعلم؟

ساد صمت فيما بيني وبيني حينها.

ثم حاولت إعادة الحوار لكن نفسي أبت، فتركتها وشأنها.

الجبال يمينًا ويسارًا تكتسي بلون مسحوق الحناء قبل أن يختلط بالماء. في منتصف بعض الجبال الأوتاد أرى خضرة. ربما تكونت بسبب سيول قد هطلت عليها يومًا، وفي الرمال القاسية أرى بعض الشجيرات الوحيدات. كيف نمت هذا الشجيرات؟ وكيف لا تزال حية؟

قرأت ذات مرة أنه إذا كانت الإبل توصف بسفن الصحراء، فتلك الأشجار بمثابة موانئ ترسو بها تلك السفن هربًا من حرارة الشمس ونيل قسط من الراحة، وأنه لا تقتصر قيمة تلك الأشجار على شكلها الجمالي وسط الصحراء واستخدامها كظل، فغالبًا ما يكون لها فوائد جمة لمداواة بعض المرضى الذين يعانون أمراضًا مزمنة أو مستعصية، اكتشفها القدماء وتوارثوا استخدامها، قبل أن تستخدم حاليًا في الطب البديل القائم على الأعشاب والتي تمتلئ بها محال العطارة في أغلب الدول العربية.

ورغم جفاف المناخ فإنه يوجد في مصر ألفان وسبعة وخمسون نوعًا من النباتات التي تندرج تحت أكثر من سبعة مئة جنس، وأكثر هذه النباتات متأقلمة بطريقة فريدة مع الظروف المناخية، بينما البعض الآخر ينمو في المناطق الأوفر حظًا مثل وادي النيل.

ومن أشهر أشجار الصحراء "العشار الشيطاني" وتنتشر في الجزء الجنوبي القاحل من صحراء مصر الغربية، ويعتبر العشار من النباتات الطبية التي تحمل داء ودواء في الوقت نفسه، وتنمو في الصحراء القاحلة وخصوصًا بجوار فصيلتها من الشجيرات البرية الأخرى كأشجار الدوم

وبلح اللجليج والعاقول، وغيرها من الأشجار التي تنمو في المناطق الجافة ومناطق الرعي القديمة.

وتلعب الرياح والأمطار دورًا مهمًا في انتشار شجيرات العشار ونحوها، لذلك يطلق عليها السكان المحليون "العشار شيطاني" وذلك لوجودها وسط الصحراء من دون أن يتدخل إنسان في زراعتها.

وصلنا أخيرًا بعد نحو ست ساعات..

توجهنا إلى الفندق ودخلت غرفتي، ونسيت أنني جئت مع أحد.

خرجت من الشـــرفة المطلة على الحديقة المطلة على البحر.

خَضَار وخضـــرة،ثم البحر الممتد، مائه شفاف كأنه مرآة تعكس شيئًا غير موجود، جنة على الأرض، صدق الذي قال يومًا:

"من جاء دهب، عقله ذهب".

وكما يفعل بنو البشر، أرى هذا الجمال رؤية العين فأنبش عن نفسي بتأمله لا يدعوني لأتدبره بل يدعوني لأتدبر نفســـي وذاتي وأتفكر به وليس فيه.

هنا تجتمع كل ألوان الطبيعة الساحرة، الأزرق لون البحر، هذا اللون المقارب إلى لون السماء كأنهما كان رتقًا فَفُتِقا. لكن لون البحر مُختلف، واستثنائي، ففي لونه الأحلام والطموح، وكلاهما مجهول أحيانًا نخاف منهما وأحيانًا نبتغيهما لنطمئن، وفيه أيضًا الحكمة، المجهول منها والمعلوم. فأما الأصفر لون الجبال والصحراء التي لا تعرف الأصحاب من الأعداء،

فأجده في نفسي لون المشقة وترك الشهوات والجلد والتسليم، وأما الخضرة الخضراء التي تملأ المكان هنا بدرجات شتى لا تُحصى ولا تعد، فهو السلام والهدوء والتجديد والإخلاص والحياة.

لا وجود للألوان فهي مجرد انعكاسات ضوئية وكل جسم يعكس الضوء على حسب ما قُدِرَ له. فالخضار الذي نراه في أوراق الشجر هو نتيجة عكس كل الألوان ما عدا الأخضر الذي هو في الأساس اندماج بين الأصفر والأزرق. إلى الآن لم أفهم هذه الحسابات وزوايا انعكاسات الضوء وكل هذه القوانين الأزلية، ربما إدراك كل أحد منا للون معين يختلف عن إدراك الآخر، ربما يرى أحدًا الأحمر أخضر، لكنه علم منذ الصغر أن اسمه أحمر، وآخر يراه أصفر، لكنه تعلم أن اسمه أخضر فصار أخضر لكليهما، وينطبق هذا على كل شيء، فهناك احتمال أن كل منا مختلف في إدراك الشيء الواحد، وكل ما يجمعنا اسم هذا الشيء، والأسماء جزء من اللغة واللغة هي وسيلة اتفق عليها الناس للتواصل لكنها تبقى وسيلة تسهل علينا الوصول إلى الغاية. وما الغاية؟

ما الذي يدعونا لأخذ نفس عميق حينما نرى منظرًا جميلاً؟ أهي غيرة الحواس من بعضها البعض؟ أردت النوم على تلك الخضرة وتحسسها وأردت النزول إلى البحر، الشمس كانت غير حارقة وقد أثر هذا في زيادة برودة ماء البحر. تمشيت متباطئًا على الرمال أتلذذ بملمسها الذي يداعب باطن قدمي الحافية، ثم بدأت أشعر ببعض الطوب والقواقع التي أهوى جمعها لإعجابي الشديد بألوانها الطبيعية الشتى، وهي أيضا تهوّن عليّ الحياة

بين العوادم والعمائر المتقاربة حد الالتصاق التي تحجب كل شيء، حتى أنك لا ترى إلا جزءًا بسيطًا من السماء إن كانت شقتك لا تطل على الشارع. قررت أن أجمع ما أريده حينما أشبع من البحر.

حينما بدأت في تحسس المياه، من تحتي إلى فوقي بالتدريج المتسارع من شدة البرودة التي جعلتني أضحك عن غير عمد، اندلع في أنحائي نشاط وبهجة وكأنما البرودة توقظ كل أعصاب جسدي وتعالجني من الداخل، وبدأت في التنفس المتسارع حتى اعتاد جسدي البرودة بعدما أخذت غطسًا سريعًا لإيقاظ أعصاب رأسي أيضًا. الماء البارد يهلل الأسارير، فأنا أحب هذا الشعور الذي أعطانا إياه الله من خلال الماء، واعتدت امتاع نفســـي بمنزلي كلما استحممت، فكنت قبل الانتهاء من الحموم أطفئ الماء الساخن تمامًا وأبدأ في القفز والمرح تحت الماء شديد البرودة كطفل.

استقررت في ما بين الشاطئ والعمق لأنني لست بسباح ماهر وبدأ عقلي يهدأ، وكأنما العقلان اندمجا، فكلاهما هنا، الباطن والواعي، وقد ساعد في استجلاب الباطن قلة النوم.

شعرت كأنني جزء من البحر وتساءلت:

ماذا لو كنت سمكة أو أنني بالفعل كنت سمكة يومًا ما، حتى إن لم يكن تناسخ الأرواح حقيقيًا، لكن ربما هذه الذرات التي يحملها جسدي تصادفت يومًا ما في جسد سمكة، فكما أن كمية المياه ثابتة وتدور فالذرات كذلك، الطبيعة ثابتة لكن عدد الناس قد تغير، وهناك احتمالان أولهما أن جينات الأولين ومكوناتهم كانت أكثر فتقسمت فصرنا أكثر عددًا مع

قصر في العمل وفي الذهن كذلك، والدليل على هذا أننا نجد العلماء القدماء يجيدون التبحر في أكثر من علم في آن واحد.

والاحتمال الثاني، أن يكون سبب انقراض بعض الحيوانات هو الذي أدى إلي زيادة تعداد الإنسان وبهذا تظل الطبيعة ثابتة، وأن تبحر الأولين في أكثر من علم لم يكن إلا لوفرة الوقت الذي صار اليوم أسرع في حركة.

أرى البحر ملتصقًا بالسماء وهو ليس كذلك، ولا أرى له شطًّا آخر وله شط آخر، فرؤية العين كثيرًا ما تكذب وتخدعنا. كنت جنينًا في بطن أمي أسبح كما أسبح الآن، وهذا يقين لم أره قط، لكني أعلمه.

تذكرت مقام سيدي عمر ونديمه، لماذا لم أذهب إليه؟

مرّت ليلتان في دهب الساحرة، ما بين التأمل في الصباح والنوم واستماعي لأشعار محمود درويش، وشرب الخمر، والملل الذي لم يتركني في الليل..

في الليلة الثالثة، وفي سبات نومٍ عميق، كنت أبحر، ثم فجأة رأيت نفســـي على الشاطئ، وأمامي مبنى مرتفع عن الأرض في نفس طولي مكتوب عليه اسمي، وعليه رأيت الفأر من الحلم السابق وأطلت التأمل فيه وأطال التأمل في، حتى انسحبت روحي وارتعشت كالمرة السابقة.

انتهزت فرصة وصول بعض الأصدقاء، وحللت مشكلة كانت تواجههم في نقص الغرف، وتحججت بوفاة صديق ليس له وجود، لأتمكن

من الرحيل، فاستأجرت سيارة إلى شرم الشيخ، ومن مطار شرم الشيخ عدت إلى القاهرة.

بعد يومين توجهت إلى الخانكة، وقررت أن أسكن في فندق متناهي الفقر (لوكاندة) هناك هروبًا من وحدتي في البيت، ولكي أكون أقرب إلى المقام.

لفتت انتباهي موظفة الاستقبال الوحيدة فنظرت إلى اسمها المثبت فوق صدرها المنتفخ المستدير، (مريم عبد الله)،لها جسم تمنيته منذ النظرة الأولى، كانت تميل إلى البياض بعض الشـــيء، عيناها ملونتان بلون الخضـــرة، شعرها قصير جدًّا يكشف عن رقبتها الطويلة، ولها حسنة باللون البني في منتصف فقرات عنقها. لها نظرة تلهب المشاعر وتقيد التفكير، فمها بلون زهري طبيعي ظننت أنه أحمر شفاه في بادئ الأمر، إلا أنني في أثناء انتظاري لتجهيز الغرفة راقبتها من بعيد تأكل شفتيها بأسنانها ولا يتأثر اللون، أظنها كانت مستاءة من شيء. وربما هي عادة سيئة تعودتها، لكنها أثارتني وودت لو التهمتهما أنا.

بدت امرأة عصرية مهندمة المظهر ونظيفة، بل أنها كانت تنطق بعض الكلمات الإنجليزية بطريقة صحيحة مما أثار دهشتي، كانت ترتدي بزة سوداء على قميص برتقالي ضيق ومحرك للشهوات.

بعد استلام غرفتي المتواضعة، ووضع حقائبي، ذهبت متجهًا إلى المقام، وفي الطريق إليه، وعلى ناصية شارع ضيق يسبق شارع المقام وشارع المسجد، وجدت بيتًا يختلف عن البيوت في القامة، فقد كان بيتًا صغيرًا

كالبيوت الريفية، يجلس على بابه شيخ، فبادرت بالتعرف إليه، هو الشيخ يحيى محمد النديم. طويل القامة وأظنه كان يومًا أطول من هذا إلا أن مرور الزمن قد أحنى من ظهره، فأخذ من طوله بعض السنتيمترات،نحيل، مكتسٍ بسمرة،وأنفه دقيق،وعيناه سوداوان صغيرتان، لكن نظرتهما عميقة وهادئة وله لحية بيضاء ممتزجة بالسواد الخفيف.

رحب بي وقال أنه قرأ لي روايتين، رواية (شغب الصبية) وهي رواية عن أطفال يلعبون، ويقوم كل واحد منهم بتولي منصب سياسي. تناقش الرواية أبعادًا سياسية وتأثير السلطة على النفوس حتى لو كانت نفوس الأطفال، والرواية الأخرى هي رواية (ستندال) التي ذكرت مطلعها، وكانت عن شاب أصيب بمرض يجعله شديد التأثر بالأعمال الفنية. وهي رواية تغوص في النفس البشرية.

كانت هاتان الروايتان أول ما كتبت، ولم تلقيا أي نجاح برغم أنهما الأكثر قربًا إلى قلبي، بل الأكثر إظهارًا لموهبتي، إلا أنني علمت أنهما لا تصلحان في بلادنا.

تحرجت من نفسي جدًّا عندما علمت أن الشيخ يحيى ليس من عامة القراء، وخفت أن يكون قد قرأ باقي أعمالي الأكثر مبيعًا، لكنه لم يذكر شيئًا منها.

ابتدأت معه الحديث عن الكتب فطال نقاشنا عن كتاب فجر الضمير، وحي بن يقظان، وكيف أنني حاولت التفكير بدون استخدام اللغة كما كان يفعل حي بن يقظان، فحينما جردت نفســـي من اللغة رأيت أشياء

في عقلي لا يمكن وصفها باللغة، فالحديث عن الوصول بالعقل إلى الأشياء العلوية لا يبلغ المقام المناسب مهما أُتقن بلاغته.

ظننت أن سكان هذا الحي سيكونون على نفس حال هذا الرجل.

احتسيتُ معه الشاي،وسألته عن إمكانية دخول البيت فتعجب، وقال: اذهب يا ولدي لترتاح اليوم ولتأتِ غدا وسأفعل لك ما تريد.

في اليوم التالي بعد الإفطار، توجهت إلى ردهة الفندق الضيقة التي لا تتعدى العشـــرين مترًا، آملًا أن أرى مريم، فأبدأ معها الحديث. مرت أمامي وأنا أحتسي القهوة، فقاطعت خطواتها ونهضت متوجهًا إليها.

سألتها عن مكان المقام الذي أعلمه، ثم طلبت منها رقمها بحجة أنني سأذهب إلى صديق في المساء وأريد منها أن ترسل لي موقع الفندق لأنني أخشـــى أن أضل الطريق، فوافقت على الفور، وأعلم أنها تعلم أنني أكذب.

ماطل معي الشيخ يحيى في موضوع دخول البيت.

– يا شيخ يحيى هل للبيت باب؟

– بالطبع له باب، وهل يوجد بيت بلا باب؟

– لماذا لا ندخله إذًا؟

– لأن أهل الحي لن يسمحوا بذلك

– فلنتسلل وندخل في الليل.

جاهدت في إقناعه حتى رضخ لي في نهاية الأمر.

توجهت إلى الشيخ يحيى ليلاً، ومعنا كشافات النور ثم سلكنا الطريق إلى البيت، طلبت منه أن يقود الطريق لكنه قدمني أمامه.

مقام سيدي عمر مبنى مربع يعتليه قبة خضراء، يحاوطه أشجار كثيرات، يقع ما بين ناصيتين، لشارعين صغيرين، ويطل بابه على الشارع الرئيسي، يلتصق بالمقام من الخلف مبنى لغرفة صغيرة كأنها جزء منه (بيت النديم)، لكنها قد بُنيت بعده بعدة قرون، وخلفهما عمارات كثيرة. كل من البيت والمقام محاط بسور حديدي بابه يطل على الشارع الرئيسي، وكان المسؤول عن فتحه الشيخ حسان حتى توفاه الله، وبعدها أصبح المفتاح ملكًا للحي لا يفتحه إلا في مولد سيدي عمر في الرابع عشـــر من شهر رجب، أما المبنى الصغير فقريب من السور من ناحية الشارع الصغير وبه وبالسور فتحة كفتحة صندوق البريد يلقي فيها أهل المنطقة رسائلهم.

ومن الناصية الأخرى للمقام قبالة المسجد دخلنا. تخطينا بابًا حديديًّا صغيرًا، غير الذي يطل على الشارع الرئيسي معلقًا عليه قفل، فرأيت الشيخ يحيى يمد يده بجيبه ليخرج مفتاحه، فسألته:

– من أين جئت بالمفتاح يا شيخ؟

فقال ببساطة وتلقائية:

– من النديم.

ظننته يدّعي البركة وكشف الحجب، فلم أعلق على كلامه، ثم مشينا بضع خطوات لنبلغ بيت النديم.

بيت النديم عبارة عن مبنى مربع يبلغ طوله حوالي ستة أمتار، وله باب مطلي بنفس لون البيت الأبيض، ولا يتميز الباب عن المبنى بأي شيء سوى فتحة الكالون المطلية أيضًا بنفس اللون، وأمام الباب شجرة اشتدت وربت فخبت الباب فتناساه الناس، وظنوا أن المبنى خلق بدون باب، فظننت أنا أنني سأواجه صعوبة في دخول المبنى لكنني دخلته بدون أي عناء وكأنما الناس كانت في انتظار أحدٍ ما ليقرأ ما كتبوه.

لم أكن أنتوي فعل هذا حينما اعتزمت القدوم إلى هنا، لكنني لما علمت حالهم قررت أن أضع في هذا الكتاب بعضًا مما كتبوه لعلهم يقرؤونه فيتعرفوا على بعضهم البعض.

تخطيت أوراق الشجرة، وقبل النظر إلى الباب تحسست من تحت قدمي شيئًا بارزًا، فنزلت في وضع القرفصاء ووجدت حصيرة قديمة جدًّا حتى أنها بدَت كجزء من الأرض فرفعتها ووجدت تحتها المفتاح، ففتحت ودخلنا.

لا أعلم لماذا تركني الشيخ يحيى أستكشف الأمر وحدي وهو معي، وما الذي دعاه أصلًا لموافقتي على هذا الفعل؟ صحيح أنني قد ألححتُ عليه كثيرًا، لكن رجلًا كيحيى لا يفعل شيئًا لا يريده.

المكان ممتلئ بالأظرف المطوية على ما فيها، وبه كروت عليها أشعار حب، ومن ضمن ما وجدت سلسلة فضية بها دلاية على هيئة نصف قلب،

ربما تعمد صاحبها التخلص منها لينسى ذكراها، أو ربما أحد ما من القلائل دخل هنا فوقعت منه، افترشنا الأرض وبدأنا قراءة الرسائل.

الغريب أنني وجدت في كل الأوراق الاسم وتاريخ الكتابة في نهاية الورقة كأنهم على ثقة تامة أن البيت لا يوجد له باب حقًا، لم أقرأ في هذا اليوم إلا القليل، لكننا جمعنا الورق الذي يمتلك الاسم ذاته وطويناه ووضعنا كل شخص في ظرف وكتبنا اسمه عليه، لأنني انتويت نقله باختصار.

الرسائل في البيت كانت بالعامية المصرية، وكنت سأنقلها كما هي لولا اعتراض الشيخ يحيى، كما أنه نصحني بتغيير الأسماء وربما أفعل ذلك.

أصبحت مقابلتي للشيخ يحيى يومية،شخص غريب، هائم أحيانًا وأحيانًا أخرى مرح، وأغلب كلامه شعري، يجعلني في بعض الأحيان أكتم ضحكاتي، إلا أنني أدون ما يقول دائمًا كي لا أنساه.

ابتدأنا نقل مذكرات البيت وأهله على حاسوبي المحمول، رتبناها على حسب التاريخ، سألت الشيخ يحيى عن مذكراته هو، فنبش عنها في وسط الأوراق وابتدأنا بها.

***

أنا المُريد.. أنا يحيى

رأيت دائرة عن بُعد، فظننت أنها متساوية الطول. فلما اقتربت، وقفت في منتصف الدائرة، فرأيتها مصنوعة من أشكال متفرقة من طين متشكل كالتماثيل، وكل تمثال مختلف عن الآخر، فمنهم الطويل والقصير، الحسن والقبيح، كلٌ يجمعهم الدائرة التي شكلوها، ورسمة الدائرة التي تبدو كعلامات العبودية عليهم أجمعين مطبوعة على منتصف كل تمثال حاولت الهروب من الدائرة لكنني لم ألقَ مفرًا، تسارعت أنفاسي وعلا صوتها، وكأنما شهيقي وزفيري بينهما سباق ما.

أبكي رغمًا عني، وفي أثناء البكاء أغني، ثم أنهض فأرقص وأدور بداخل الدائرة، فلا أعلم ماهيتي وأنا أدور، هل أنا تمثال مثلهم؟ هل أنا الشمس أم أنا جرم صغير؟تسارعت في الدوران، حتى شعرت أنني أحلق، ولي جناحان لأحدهما من طين والآخر من نور، وكل منهم يلاحق الآخر، وفيما بينهم أرى الحياة يقطعونها، أرى مشاهد لأحياء يسكرون ويضحكون، ثم يقطعها رؤيتي الواضحة للتماثيل التي أدور بداخلها.

أبي قد توفي منذ أمد بعيد، كان قاضيًا عملاً وإعمالاً، وقد دخلت كلية الحقوق لأصبح قاضيًا مثله، لكنني أحببت المحاماة فاشتغلت بها.

بدأ حالي مميز منذ بداياتي كنت أسأل عن الله دائمًا، ماهيته وقدراته وكنت أديم التفكير في هذا، رأيت ذات يوم وأنا مع أهلي رجلًا جالسًا في أرض خلاء يوقد نارًا فظننته الله، ورأيته في حلمي جسمًا متشكلًا من نجوم كثيرة، وفي سن أصغر كنت أعتقد أنه الحلوى، ولهذا نشعر بسعادة حينما نأكلها.

وما خلا من كل هذا ربي..

عشت أسأل أهلي فتارة ينهرونني، ويحاولون إقناعي أن هذا لا يصح، وأنني سأعرف حينما أكبر وهم كاذبون فهم لا يعرفون، وتارة أخرى يضحكون في كتمان مستنكرين، ثم أسمعهم يحكون هذه المواقف للأقارب وأتعجب وهم غافلون.

الوحيد الذي كان يتحدث معي هو جدي النديم باني هذا البيت، ورثت منه كتبه، والكتب نادرة الوجود هنا.

عشت حياتي غير مستقر وغير فاهم، داومت على القراءة كثيرًا وكنت كثير التفكير في كل شيء، وبحكم حبي للقراءة ابتدأت في حضور لقاءات ثقافية كثيرة لكتّاب بأفكار مختلفة، وكوّنت صداقات شتى من هذه الندوات، واكتشفت أنه ليس بالضرورة أن كل من يقرأ منفتح العقل ويتقبل كل شيء، فوجدت أناسًا لا يقرؤون إلا الكتب الدينية، ووجدت على النقيض من لا يقرأ أي شيء يجعلهم يتشتتون عن فكرهم الإلحادي،

ومع العلم كلهم لا يزالون أصدقاء لي؛ لأنهم أقرب لي برغم بعد المسافة من هذا الحي الظالم أهله، فلا أجد في هذا شيء، فكلهم جميعًا ما خلا ربي منهم. وما خلا حتى من أهل هذا الحي.

تذبذبت ما بين اليمين واليسار، فتارة أنتظم في صلاتي وتارة أنشغل بذاتي. تزوجتُ بامرأة عادية، ظننتُ لفترة ليست بقصيرة أني أحبها. وكل ما كان يربطني بها طفلي والمودة والرحمة. فأما الحب، فلا حب إلا له، وظنت زوجتي أنني مجنون، وما العيب حتى إن كنت كما ادعت؟

وأنا أرى أنني مجذوب، جذبني ربي إليه، ما عدت أنا كأنا موجود إلا بجسمي، ولا أريد شيئًا من هذه الدنيا وهؤلاء البشـــر الغافلون المتغافلون.

أشفق عليهم...

دائمًا ما يبحث الناس عن شخص يقدسه، المتدين يقدس رجل الدين، والمثقف يقدس الكاتب، والسياسي يقدس السلطة إن كان معها، ويقدس المعارض المُلقى عليه الضوء إن كان معارض للسلطة.

لا بد ألا تقدس أحدًا..

أثقل عقلك بالمعرفة، وكن خفيفًا إذا أعجبك أحدهم حتى وإن كان منهم من قادك إلى النور وكشف عنك غطاءك الذي قد لثمت به عقلك طويلًا، اجعل في يدك شعلتك الخاصة .

لا تجعل أحدًا ينير لك طريقك، لأنه إن غاب سيظلم هذا الطريق، وسيدركك التيه، وستفقد مبتغاك، وربما عاد اللثام على عقلك أنت محور الكون،أنت طوق النجاة لنفسك خذ من كل لهب مُشِع سبيل لتزداد

الإضاءة في شعلتك الخاصة، وليسطع نورك الداخلي، اختر طريقك الخاص، ولا تكن تابعًا للقطيع، مهما يبدُ القطيع مستنيرًا سيظل قطيعًا، انحرف عنه، واتبع نفسك وعقلك.. تنجُ.

هددتني زوجتي بهجري تارة، وتارة أخرى بإرسالي إلى مستشفى المجانين لا تفهم فهي غافلة عما في.

منذ عدة أعوام عقدت معه اتفاق وكان كالتالي، يبتليني بما يشاء وسأتحمل مهما يكلف الأمر، وبدأت بتخيل أسوأ الابتلاءات، فشغلني هذا عنه قليلًا، ولما جاء الابتلاء بشيء لم أتخيله فكان الابتلاء في أصله نعمة، فقد رزقني الله بطفل ما حسبت له حسابًا، ولم أتوقع قدومه، لأني تزوجت منذ أعوام عديدة جدًّا ولم أوفق. بالإضافة أنني لم أرغب في الموالي من الأساس، لكنني أحببته حبًّا شغلني عن حبيبي قليلًا، ونسيت العهد وظننت أن الله قد تناساه. حتى أتم الطفل الثامنة، فمرض.

بدا لنا أنه مرض الأنفلونزا الطبيعي، امتد لشهر، درنا به خلاله على أطباء كثر، كل طبيب منهم كان يشخص تشخيصًا مختلف. أولهم قال انفلونزا، ثم الثاني قال التهاب شعبي، ثم التهاب معوي، ثم الأخير قال إنه التهاب شعبي أدى إلى التهاب معوي. وكل منهم كان يبدل الدواء الذي كتبه الآخر، حتى وهن النديم الصغير وامتنع عن الطعام تمامًا، وانتقل المستشفى ليتم توصيله بالمحاليل، ومات هناك.

فأدركت أن هذا هو الابتلاء، ولم يكن قدومه إلى الدنيا ابتلاء كما ظننت وتعجبت عندما رضيت بموت ابني. بالطبع تألمت، وكلما تذكرت صوته وحركاته وذكائه الذي بدا عليه، انقبض قلبي.

أراد الله أن يغسلني من الذنوب، فكنت كمتسخ لا يدري كيف يزيح عنه اتساخه، فأُنزِلَ عليه شلال غزير من الماء البارد بســـرعة فائقة، فكان الماء كالكرابيج الموجعة، فكاد أن يموت بنفس الشـــيء الذي كان من المفترض أن يحيى به.

الطريق إلى الله عناء يصحبه بلاء ثم الارتقاء بالاستغناء فالشفاء وكشف الغطاء.

اتهمتني زوجتي بالفرح للتخلص منه ومنها وأني لا أعرف الرحمة ولا اعرف معنى الأبوة، ففي القلب ما فيه وهي غافلة، كل ما في الامر أنني ارتضيت لحكم الله، فقد وجدني الله منه وإليه أعود ثم رزقني ورزقه منه وإليه مردود، فهو الذي منح، وهو الذي أخذ، وعوضني فيه بغير حدود.

أدرك اليوم أن وقتي قد حان، وأن الأوان آن، فاليوم بداية، وكل لحظة بداية لشـــيء ما، سواء أدركنا ذلك ام لم ندركه. وقد أدركت أن اليوم يتغير كل شيء وحالي أنا شيء سيتغير اليوم. أنا الآن أقدم له عمري ووقتي، كل ما عشته من ماضٍ، وما سأعيشه من حاضر، اليوم أهرب، اليوم سآتي إليك يا مليكي، يا حبيبي، يا أحب المحبوبين، يا نجاة التائبين، لا أريد نهرًا من عسل، ولا أريد خمرًا، ولا غلمان، لا أريد تينًا ولا زيتونًا ولا لبنًا ولا عنبًا ولا قصورًا، أريد الرجوع إليك راضيا مرضيًّا إليك أنت يا

واحد يا أحد. أريد أن ترد إليك روحك التي نفختها في لتصبح جزءًا منك، أو شيئًا لا يذكر من نورك. لا أريد إدراكًا ولا شعورًا، أريدك أنت وحدك. لا أريد بشرًا ولا حورًا، كل ما أريده أنت يا نور.

انفصلت عن زوجتي، فقد اختفت كل المودة والرحمة التي أحاطتنا، وأصبحت الكآبة هي الباقية، فيتذكر كل منا ولدنا المتوفَّى كلما نظرنا إلى بعضنا البعض.

جدي من بنى البيت الملتصق بمقام سيدي عمر، بناه على قبر أبيه الذي حكى لي عنه كثيرًا، وعن بركاته وعن كلامه الذي يخبل العقل، جدي أحس بوجود الله فيهم جميعًا، وود أن يحبون بعضهم البعض في الله، ويقرأ كل منهم ما كتبه الآخر، وكان ينتوي، أن يضع كتبًا أيضًا في البيت لتكون متاحة للعامة بجانب الرسائل، وقد أعطاني مفتاح الباب الحديدي الصغير الذي يقابل باب المبنى من الداخل، ولم يعلم الشيخ حسان عنه شيئًا.

انغمست في الأمور الحياتية، ولم أهتم بأمر البيت قط، لكني سأحاول أن ألفت نظر الناس إلى أهميته، وسأنقل جميع كتب جدي التي ورثتها إليه، سيكون هذا الحي جنتك على الأرض، وسيدرك جميعهم الآخر، وسيسود الحب في نفوسهم أجمعين. اليوم مات حسان، بائع صكوك الغفران، بائع رضى الرحمن الذي لا يمتلكه. اليوم يتحرر حي النديم، حيَّك يا جدي.

يحيى حسين النديم

2014/8/13

الكاتب

- يا شيخ يحيى هذا التاريخ مر عليه سنة وأكثر، فلماذا لِمَ تكتب كل هذا الوقت؟

رد علي يحيى وفي عينيه حزن دفين:

- لم يفكر أحد في الدخول إلى المنزل من وقت أن مات حسان، قد مات من كان يمنعهم من الدخول، أو من وهمهم أن البيت لا باب له ربما لأنهم لا يريدون الدخول، لا يريد الفرد منهم معرفة شعور الآخر، هو فقط يريد التخلص من ألمه بالكتابة.

حديثهم مع حسان كان هزلًا، يحكون إليه أشياء ليست كاملة ويكذبون في مشكلاتهم ويفتيهم هو بفتواه الخاطئة، فيتوهون أكثر.

حسان لم يكن إلا إمامًا للمسجد المقابل للبيت، استولى على البيت والمقام ومعه بعض ضخام الجثة. والبيت كان منسيًّا، وجدي بناه ثم مات قبل أن يشـــرح لأحد سبب بناءه، إلا أنا، وحسان الذي كان صديقه، لكنه زيف الحقيقية وجعل من البيت لقمة عيش.

فكان الناس يرمون في البيت مالًا ويظنون أنه يذهب بمعجزة ما إلى يد الله، ومن ثم يلقيه الله للفقراء في طرقاتهم، لكن حسان كان يجمع المال ليلًا ويأخذه لنفسه، وحاولت أن أدعوهم إلى القراءة، حتى أنني دخلت البيت في النهار متعمدًا أن يراني الناس، فحينما رأوني خارجًا منه أبرحوني ضربًا، ومنعوني حتى من الصلاة معهم في المسجد. فحاولت أن أقود أحدهم إلى الباب حتى يصدقوني، لكنهم اتهموني بالكذب ولم يكلفوا أنفسهم حتى عناء التأكد من كلامي، فاعتزلتهم وعشت في منزل جدي الذي رأيتني فيه أول مرة، لقد هربت من الدائرة يا ولدي...

***

أماني

(قُل يا عظيم)

الكون على عقلي فسيح، أخشاه ولا أجده مريح، عقلي يتلاشى ويغرق مع مرور الوقت كل ما يربطني حتى بمن أحب هو هذا الجسد الذي يقيِّدني، وهذه النفس الضعيفة التي أسكنها. أنا صَيد سهل جدًّا لكل شاب أراد التلاعب بمشاعر فتاة.

أوشكت على كره الرجال من كثرة الصدمات التي حاوطتني. تجاربي المتتالية هذه جعلتني أظن أن الرجل لا فائدة له، ربما فقط الأشياء الجسدية التي لا أعلم كيف تبدو، إلا من خلال بعض الأفلام وحديث الصديقات المتواري عن أعين الأهل.

مُحِب هو الحب الوحيد الذي بقي في قلبي وسيبقى إلى الأبد، أميل عنه أحيانًا بحثًا عن حب غيره، ثم أعود.

جمعتنا الدروس والمدرسة وصديقتنا المشتركة نورهان، لكنه لم ينتبه إليّ يومًا، ولم أحاول أن أنبهه بحبي، كنت أرى حبه لمريم زوجة أخي الآن التي تركته، ولذا أنا دائمة الحقد على مريم، لأنها فازت بحبه قديمًا وحب أخي الآن.

قصتي معادة منذ الأزل، أب يترك زوجته ويتخلى عنها وعن أولادها.

أخي يسافر كثيرًا ولا أكاد أشعر بوجوده، ثم إنه قد تزوج منذ فترة وجيزة فأصبحت لا أشعر بوجوده قط، فلم يحل محل أبي. بالطبع أحبه وأتذكر له مواقف طيبة عديدة لكنه لم يكن لي سند. فأما أمي فهي تبحر في بحر الدين والمحبة الإلهية، أتذكر جيدًا حالتها حينما هجرني خطيبي وفوجئنا بخطبته لأعز صديقاتي ففقدت النطق لثلاثة أيام. كانت أمي حينها تموت على حالي، لم يشفق على نفسي أحد إلا نفسي وأمي، فكثر إشفاقها علي حتى صار انشقاق في عمق الأعماق فتبدلت، وابتعدت عني لأنها كانت تخاف تحدثني في شيء لألا أحزن، فصار كلامنا قليلاً جدًّا.

كل منا وحيد في نفس المنزل، لا يؤنس أحدنا الآخر.

لا يمكنني القول بأنني اشتقت إلى أيام محددة في حياتي، من الممكن أن تكون لحظات أو أجزاء من أيام، فإذا نظرنا إلى فترة الطفولة كانت فترة حاقدة حاسدة ناظرة إلى كل ما يمتلكه الغير وحرمان محبط من هذا الذي يدعى أبًا، فلم أَرَهُ في حياتي إلا مرات قليلة.

مريم تحاول دائمًا التقرب لي، لكنني كلما أراها ينقبض قلبي، وأتذكر حب مُحِب لها، أعلم أنه ما عاد يحبها الآن لكني أتذكر نظرة عينه لها، وأتذكر كيف تركته بدون أي أسباب، نصحت ياسين أخي كثيرًا بألا يتزوجها، لكنه لم يستمع إليّ. هو الآخر يحبها وينظر إليها نفس النظرة، سألت أمي كثيرًا من هي الأحلى أنا أم مريم، فكانت ترد دائمًا بأنني الأجمل، لكنها حظوظ، وأن نصيبي سيأتي عما قريب، ولا يأتي هذا القريب أبدًا.

تخرجت في كلية الآداب قسم إعلام، ولم أفعل أي شيء بشهادتي، أخذت دورات تدريبية، تعلمت بها وضع المكياج، فصــــرت بها أنفق على نفسي وأمي.

ترى إن جاء لي شاب يريد الزواج مني، ماذا سأقول عن أبي حينها؟

صليت اليوم الفجر في خشوع لم أدركه قط، ثم سمعت صوتًا يخرج بوضوح من غرفة أمي كثيرًا ما سمعته لكنني لم أسمعه بقلبي إلا اليوم، صنعت لنفسي حضرة إلهية، وكأنما انتقلت إلى عالم آخر. عالم يخلو من الأربطة ويخلو من الناس ويخلو من كل شيء. أنا وما أسمع وجسدي يرقص بخفة شديدة لم أعرف من قبل أني قادرة عليها، فكنت أرفع ذراعيَّ إلى فوق وأحركهما يمينًا ويسارًا وألفُّ مثلما يلف راقص التنورة ثم أقف وأحرك رأسي يمينًا ويسارًا ثم أجري على النافذة، واستمر في تحريك جسدي وأنا ناظرة الي السماء.

يقول الموشح الذي كنت أستمع إليه:

قل يا عظيم أنت العظيم،قد همنا أمر عظيم وكل أمر همنا، يهون باسمك يا عظيم أنت القديم قديم في الأزل، أنت اللطيف لطيف لم تزل عنا أزل ما قد نزل، وكن بنا رحيما يا رحيم...

يا رب، اللهم إني أسألك نصف حظ مريم.

أماني عزيز عبد الدايم

2014/10/5

***

الكاتب

ها هو أول ذكر لمريم، ومن الواضح أنها شابة تحقد عليها حقداً شديداً، حتى وصل بها الأمر لذكرها حتى في الدعاء.

توطدت علاقتي بمريم، كنا نتحدث كل يوم بالرسائل النصية والمكالمات التليفونية الطويلة. كانت واضحة كالشمس، من بداية كلامنا وقد ذكرت أنها متزوجة وعندها بنت. وحكت لي عن معاناتها وهي صغيرة وتخبطها في الحياة.

أول ما جعلني أتعلق بها روحيًّا -بجانب أنني أردتها جسديًّا- هو أنها تقرأ. وأظنها الوحيدة التي تقرأ هنا بجانب الشيخ يحيى. وبرغم أنها لم تقرأ لطه حسين أو تولستوي أو دوستويفسكي أو نجيب محفوظ، لكنها تقرأ لي ولكل الروائيين الشباب من أمثالي، ودائمة البحث عما أذكره لها.

تحدثت معي عن أحمد النجار، أحد سكان المنطقة المعروفين الذي تُوفي منذ عدة أشهر وأنه كان مريضاً بصرع الفص الصدغي. وكان يزعم أنه يُكشَف له العديد من الأشياء، ثم أن ابنه يونس أيضًا مريض، ويزعم أنه

أيضًا يتذكر ما كان يحدث في عالم الذر، وسألتني إن كنت أرى أن ما أصابهم هو مرض ورثه الابن عن الأب أم هو حقًّا كَشف ووحي؟

قلت لها العبارة المشهورة لبروتاجوراس زعيم الفكر السوفسطائي في القرن الخامس قبل الميلاد: إن الإنسان مقياس المعرفة، أي إن ما يبدو لي حق فهو حق بالنسبة لي وما يبدو لك حق فهو حق بالنسبة لك، وهذا يعني أن الحقيقة نسبية.

أظن أنها أجرَت بحثًا عن المعرفة بعد هذا الحديث، فدار بيننا اليوم نقاش مطوّل، بل ذكرت في كلامها مصادر المعرفة عند الفارابي، فزاد إعجابي بها وبشغفها للمعرفة.

كنت أستمتع بالحديث معها، لسببين أولهما أنها صاحبة فكر مميز، وفطنة والسبب الآخر هو أنها كانت تنبهر بمعلوماتي وتسألني دائمًا عن رأيي في أشياء كثيرة، بالإضافة إلى ضحكاتها التي كان لها صوت مميز كأنه صوت الحياة.

كنت آخذ معها الحديث أحيانًا إلى الجنس، فتارة تدعي الغباء وتارة تصمت، لكنها لا تصدني بطريقة مباشرة ولا تدّعي الغضب كي أكف.

لم أقل لمريم أي شيء عن دخولي البيت، قلت لها إنني فقط أكتب عن أهل البيت، كتاباتها كانت أمامي طوال الوقت في البيت، لكني لم أقرأها، لأنها كانت كتاب مفتوح أمامي، ولأن الشيخ يحيى كان مصممًا أن ننقل بترتيب التواريخ، وقال إن مريم تكتب كثيرًا فنصحني بأن ننظر لها أخيرًا.

لكنني لم ألقَ أوراقًا جديدة لمريم، في الأيام التي كنا ندخل فيها البيت. كل مرة كنت أحاول الاطلاع على أي أوراق غير التي نتطلع عليها معًا كان يمنعني.

كنت كل يوم أتخيل مريم وأتمناها فأقترب منها تدريجيًا حتى يصبح جسدانا واحدًا. ولا أواجه نفسي بأنها امرأة متزوجة ولا حتى أسأل إن كانت تحب زوجها أم لا، وحتى هي لا تذكره أبدًا.

***

ياسين

(ثورة الغضب)

ما هذا الذي فعلته للتو، أكانت هذه ثورة غضب من ثوراتي الكثيرة التي تكاد تعصف بمن حولي وبي أنا أيضًا؟

كان الطريق مزدحمًا، وكان هذا الرجل العجوز قليلاً، يقف بعيدًا عن الرصيف بمسافة قصيرة جدًّا وكانت حقيبته متمددة علي الأرض ليريحها ويريح يده، رأيت حقيبته بوضوح، وكان من الممكن أن أنعطف إلى اليمين قليلًا، لكنني أخترت أن أسحقها بعجلات سيارتي، تذمر الرجل وابتدأ بالصراخ في وجهي بكلمات عتاب من قبيل (ينفع كدا يعني؟، إيه قلة الذوق دي؟، أنت أعمى؟) فتركت السيارة، ونزلت وبدأت بنعته بأقذر الشتائم، وتحسست ظهري لأسحب طبنجتي التي اعتدت دس نصفها في بنطالي من الخلف، أصطحبها معي طوال الوقت تلاشيًا لأي شيء يحدث.

وبالطبع هي مرخصة فمن ضمن المحلات التي يمتلكها خالي وأعمل بها، محل يبيع الأسلحة وإكسسواراتها.

المهم، بعدما تبادلنا الصراخ ورآني الرجل أمسك بالطبنجة في يدي، نظر إلي نظرة استحقار أفاقتني مما أنا فيه، لم يخف، كان مستسلمًا تمامًا وفي عينيه غلبة وحزن، وابتدأ المارة في التجمع، وتعالت الأصوات فلم أدركها جميعًا، لكن مما سمعت وسط الأصوات صوت رجل يتهمني بعدم الرحمة، وأني استغل سلطتي على رجل عجوز غلبان، أظنه اعتقد أنني ضابط شرطة، وفجأة هدأت وأعدت طبنجتي إلى مكانها وقبّلت الرجل على جبينه وركبت السيارة ومضيت.

في كل مرة أصاب فيها بنوبات الغضب هذه، أندم أشد الندم وأعتذر اعتذارات لا نهائية.

حتى مع زوجتي التي تستدرجني لشجار ولا أجد سبيل للمقاومة، فأتطاول عليها بالألفاظ، وازدادت معها نوبات الغضب فصرت أضربها في بعض الأحيان، لم يصل ضربي لها حد الإيذاء، لكنه على أي حال إهانة لها وإدانة لي في نظرها.

لا أرى إهانة غير مغتفرة في الضرب، لطالما عرفت خطئي واعتذرت مرارًا، فهل الاعتذار غير كافٍ لها، أجده كافيًا، فأنا أرى في الاعتذار إهانة وبرغم ذلك (أعتذر).

في صغري كنت أرى أبي يسب أمي ويصفعها على وجهها، وفي الليل بعدما ننام جميعًا كانت تبكي بحرقة فأظن أننا سنستيقظ في الصباح فلا نجدها، فأجدها مستيقظة متبسمة تحضر لنا الفطور، وتعد له القهوة بحب، حتى أنه هو الذي تركها وتركنا وذهب عنا بعيدًا.

أحببت زوجتي جدًا وما زلت أحبها، لكنني في كل يوم أظن أنها كرهتني فيزيد انشغالي بهذا ويزيد اشتعال ناري فأنتهز أي فرصة لأهينها وأشعرها بأنها لا شيء والحقيقة المعلومة أنني: أنا (اللا شيء).

يعتبرني البعض ناجحًا، وأنا لا أرى في نفسي أي نجاح، تخرجت في كلية التجارة التي تعرفت فيها إلى مريم، ثم أصبحت مسؤولًا عن محلات خالي، ولم أسعَ إلى ذلك، هو من طلب مني هذا إشفاقًا على حالنا، أدير له محلات مختلفة في القاهرة الكبرى، وفي الجيزة، وهنا في القليوبية، وبعضها في محافظة البحيرة، بلد أمي الأصلي، كل يوم أعيد نفس المهام فلا إبداع في هذا ولا إصلاح، إما أقيم في أحد الفنادق لأتابع المحلات وأُحَصِل إيراداتها، أو أسافر لاستيراد البضاعة، أو أبقى في المنزل أتشاجر مع زوجتي وأجلس على المقهى مع الأصدقاء.

أب أنا لبنت أحبها حبًا لا يوصف، وفي كل مرة نتشاجر أنا وزوجتي أمامها، آخذها معي إلى الغرفة رغمًا عن زوجتي، وأغلق الباب وأطيل اللعب معها، لا أعلم ما الذي يدعوني لفعل هذا، ربما لأثبت لهم أنني أب حسن أو لأنني أذعر كل الذعر أن تأخذها ويتركانني، فأفعل هذا لأضمن أنها بجانبي ولأنني أعلم أن أمها لن تغادر بدونها.

في كل مرة أعتذر لزوجتي، أنتوي من أعماق أعماقي ألا أفعل هذا مجددًا. لكنني أفعل، ربما إن غفوت يومًا غفوتي هذه التي أغفوها وأنا متذمر، أدركتني زوجتي واحتضنتني فأهدأ. أو أنها صرخت في وجهي ونهرتني كما أنهرها فأهدأ. لكن المؤكد أن تركها لي الذي تهدد به دومًا لن يجعلني أهدأ.

أسافر غدا لإتمام عملية استيراد لبعض الإكسسوار، وسأغيب ربما لشهرين، وأخاف أن أرجع فأجد البيت قد خلا إلا من ثورات غضبي. اللهم ببركة سيدي عمر ونديمه اهدني يا الله.

ياسين عزيز عبد الدايم

2014/10/13

***

الكاتب

لم تذكر لي مريم عنف زوجها معها، ربما لأنها تبدو امرأة قوية تأبى الخضوع، فأحبت أن تظل هكذا في نظري. ولم تذكر أيضًا أنه يسافر كثيرًا، ربما لتحصين نفسها مني.

بعدما قرأت كلام زوجها، طلبت منها اليوم أن أراها، فوافقت على الفور.

تقابلنا ليلًا في كافيتريا فقيرة، أخذتها أولًا ثم توجهنا إلى هناك. كانت متزينة لي ومتعطرة برائحة فرنسية أعرفها جيدًا، لأن زوجتي كانت تستخدمها. انقبض قلبي لحظة أن شممت الرائحة حتى اعتادها أنفي فكانت كأن لم تكن.

جلسنا وطلب كل منا قهوة، هي مدخنة شرهة، حتى أنني اعتبرت نفســـي مقلًا في التدخين أمامها. لكنها فســـرت لي هذا بأنها لا تدخن في البيت فتحاول تعويض هذا حينما تخرج.

أَعيُنُ الجالسين من حولنا كانت تحدق إلينا، لا لأن أحد يعلمني، لكن لأن المرأة المدخنة وغير المحجبة دائمًا ما تلفت الأنظار إليها.

حركات يديها واهتزاز قدميها كانت تفضح توترها، لكنها كانت تحاول إخفاءه، كذلك نظرات عينيها كانت تقول أنها تشتهيني. وأظن أنها كانت تود أن أعلم هذا.

– هل تعلمين الشيخ يحيى؟

– ومن لا يعلم الشيخ يحيى، هو من ربى الجميع. لقد اعتاد قبل وفاة الشيخ حسان أن يجمعنا في بيته مسلمي الحي ومسيحييه. كان يتراوح عمرنا حينها ما بين الخمسة عشر والعشـــرين، وكان يحكي لنا حكايات كثيرة وكان دائمًا يقول:

"كل شيء يدور، وإذا كف عن الدوران فقد التوازن ومال على إحدى جانبيه. ومثلنا كمثل كل شيء، فاذا كنت تخاف المَيل فلا تكف عن الدوران، وإذا ما دُرت ما عشت ومِلت، واذا دُرت رغما عنك أو بدون وعيك ستخسر متعة التسليم. الكل يسبح بحمده فأدرك تسبيحك تدركه هو."

قلت لها ضاحكًا:

– أنت تحفظين كلامه عن ظهر قلب! هل تذكرين شيئًا من حكاياته؟

حكت وهي مبتسمة برغم حزن القصة:

- كان هناك مجموعة من البغال والخراف والحمير وقليل من البشر وكانوا جميعًا منساقين خلف اثنين من الكلاب، أحدهما يرتدي عمة والآخر يحمل سلاحًا، إلا بنو البشر، كانوا يدعون إلى المحبة. وظلوا جميعهم خاضعين للكلاب وملتصقين بخطاهم حتى دفنوا ما تبقى من البشر ثم أدركهم التيه جميعًا.

- هه، هذا كلام خطير.

- هذا مجرد مثال وقد حذره جميع أهل الحي، بل الأحياء المجاورة، حتى كف عن هذه الحكايات، وكان فقط يحدثنا عن الله. وعن التشابهات ما بين الأديان. وأتذكر الآيتين من الإنجيل والقرآن اللتين كان يبدأ بهما حديثه دائمًا، (الله نور السماوات والأرض)، (إن الله نور وليس فيه ظلمة البتة)، فكان قاب قوسين أو أدنى من أن يترع مننا كره الآخر، وأن نتبع جميعًا دين الحب معه، فحرض الشيخ حسان عليه أهلنا جميعًا، فذهب إليه أحمد النجار وقت أن كان متعصبًا دينيًّا في جمع من الناس وضربوه وهددوه بالسجن.

- ربما لو كنت قد أكملت جلسات الشيخ يحيى لكنت كاتبة مثلك الآن. كان حقًا إنسانًا جميلًا.

- أنت الجميلة يا مريم.

تمنيت لو طلبت منها صراحةً أن أصطحبها إلى غرفتي في الفندق. لكني خفت أن أخسرها إلى الأبد.

توترت حينما قلت لها إنها جميلة. فحاولت أن أفتح معها أي موضوع، فسألتها عن ابنتها وعن سنها. كنت أتمنى أن تتحدث عن زوجها وتشتكي منه، فتجد الصدر الحنون الذي يسمعها ويحمل عنها أوجاعها، تعجبت حينما قاطعت أفكاري قائلة:

— زوجي مسافر اليومين دول لكن تركت ابنتي مع عمتي فيجب أن أذهب الآن لآخذها.

الكلمات كانت تبدو طبيعية تريد بها إنهاء المقابلة، لكني موقن بأنها أرادت أن تعلمني بسفر زوجها.

مدت يدها وهي تغادر سيارتي لتسلم، فقبلت يدها قبلة جَمَّعتُ فيها كل الشهوة التي كادت أن تقتلني، خفت بعدها من ردة فعلها لكني لم أحسب النتيجة قبلها.

نظرت لي نظرة لم أفهمها ولم تفعل شيئًا ونزلت.

***

أحمد

صاحب الصرع

بدأ كل شيء بهذه الومضات التي رأيتها فجأة، وغربة روحي في جسدي، ورفضها له، حتى بدأت الرعشات في قدمي وساقي. فأما رأسي، فكان بداخله بركان، وعقلي يتمزق إربًا بدون وجع أو صداع، وكأنما شيئًا يريد الخروج منه.

كل ما يدور في رأسي هو التعجب.

أدور مستكشفًا كل شيء يحوطني، هذه الساعة، الثانية، ساعة موتي، هذا التلفاز من الذي اخترعه؟ استشعر السجادة تحت وجهي وأبدأ في فقدان الواقع، وما هو الواقع، ما من شيء حقيقي، ما أنا إلا صورة غير واضحة وسط صور كثيرة، لا أُدرَك لأني واحد وسط الكثير من الصور الواضحة البارزة كأنني رُسِمت بقلم رصاص خفيف، والباقي من حولي رُسِم بالأبعاد الثلاث، ينطقون وأنا أخرس، يا ليتني لم أرسم أهون من أن أكون غير مُتقَن وغير واضح.

أغمض عيني فيزداد ارتعاش جسدي، وأرى ما لا عين رأت، أو ربما رأت وما يدريني.

أرى نفسي تحت الأرض مكبل اليدين بأصفاد من حديد أحاول تحريكها وفكها فلا تنفك، فأحاول الصراخ فلا أجد لي صوتًا، وفجأة أنا في حال جديد، بستان واسع وشجر ثم صحراء ومطر وطريق سفر.

لقد تزوجت صغيرًا ولم يدم زواجي إلا خمس سنوات، وكان ولدي يونس نتاج هذا الزواج، تركته أمه لي وهو ابن الأربعة أعوام وسافرت وتزوجت وأنجبت، ثم عادت إلى البلد ليكون مصيرها دارًا للمسنين، هنا في الخانكة، نفس المكان الذي تركتنا قديمًا فيه.

تزوجت بعد طلاقي بأربعة أعوام بامرأة شديدة الجمال، خفيفة المعشر، وبعد اثني عشر عامًا من زواجنا، توفاها الله.

وانقبض قلبي وتزامن هذا مع أول نوبة صرع أتت لي وأنا في منتصف الأربعين. كنت جالسًا في المنزل وحدي أشاهد التلفاز، شممت رائحة دخان، وكأن شيئًا يحترق، علمت فيما بعد أنها كانت رائحة مزيفة لم تكن إلا في مخيلتي. ثم شعرت بغليان يجري في دمي. عضلاتي ترف وريقي يجف. ثم حاولت الصراخ لكن صوتي بدا غريبًا، وكأن حنجرتي متشنجة، ووقعت على الأرض كأنني لم أقع. أدركت وقوعي لكني لم أشعر بشيء، ثم استفقت على ابني وهو يمسح فمي ويحاول حملي، جاء لي بطبيب بعدها كتب لي بعض الأدوية، ونمت نومًا عميقًا ما نمته قط من قبل.

وبدأت الرؤى في الظهور...

والعجيب فيما كنت أرى وأنا نائم أن معظم الكلام داخل الحلم كان بصيغة شعرية والأغرب أني أتذكر حتى الآن. ربما لأنني كنت أدوّن ما قيل لي بعد كل حلم، وكنت أقرؤه كثيرًا حتى حفظته عن ظهر قلب.

زارني في نومي بعد أول نوبة شيطان قال إن اسمه زلنبور علمت بعد هذا انه اسم للشيطان حقًا، لكنه موكّل على من في السوق بتزيين أفعالهم من اللغو والكذب والقسم الكاذب ومدح البضاعة لبيعها. لكني لست بتاجر، أنا مجرد صاحب أرض.

رأيته واقفًا وسط نساء كثيرات، كلهن شبه زوجتي الثانية باختلاف طفيف في الملامح ولون الشعر، وجميعهن وهو معهن بدون ثياب. وكان طويل الشعر، حسن المنظر كأبطال الأفلام الأجنبية.

فقلت له وأنا أتأمل أجساد العاريات:

- من أنت؟

- كيف لا تعرفني؟

ضحك ثم أضاف:

- لقد علمت أنك إنسان تنسى.

- لا تنفعك الذكرى ومن جذورك توسى.

- أنت يا صديقي في هذه الدنيا عابر سبيل.

– لا ينفعك الهروب ولا لدورك بديل

فعش حياتك طولًا وعرضًا.

وكن قاتلًا بدور القتيل.

انهض معي هيا سأعرّفك على هذه الدنيا فأنا هنا منذ الأزل اسمي زلنبور.

تاجر الحور.

صاحب القصور.

صافحني يا صديقي وهلم النشور.

اسمع وأعِد، وخذ كلامي على محمل الجد.

الأول أن تكون لي مطيعاً.

ولكلامي سميعاً.

تبتاع مني الحور.

وعلى رزقك لن أجور.

والثاني أن تبيع نحاسًا للناس على أنه ذهب.

وتقسم أنه ذهب فأُصَدِّق على كلامك ويسمعون.

فتجني مالاً هو كله لك.

فتمتع جيبك بالمال وتمتع نفسك بأنهم قد صدقون.

والثالث أنك تنعم في الدنيا بغير كبد.

تجعل الليل معاشًا من المتع البراقة.

وتجعل النهار راحة.

وتقطع مع الخائبين العلاقة.

وأما عن مأمون فسأجعله لك خادمًا.

(وأشار إلى قزم صغير)

يعطيك قوة ويصبح الكون في يدك خاتمًا.

وأما عن نور فهناك احتمالان.

إما ان نصول ونجول في الأرض مترفين.

وحين يأتي يوم تزعم أنك تغيرت وندمت.

فيصدقك ويبدل محلك بمحل الساجدين.

أو أنك تبقى على حالك فربما هو في الأساس غير صادق.

أو أنه لا يملك لك شيئا، وأنا أرجح هذا.

فلو أنه بهذه القدرة الكلية،

فلما كل هذا التعب ليجازيك أجرًا؟

وربما يا صديقي تظل على الصراط الذي حدده لك.

ثم بعد ذلك لا تروق له، فيقرر عذابك.

يا صاحبي، اسألني أنا عنه.

لقد خدمته أبدًا ثم طردني وعزلني.

وجعلني يائس منه ومني لمجرد أنني كنت أغار عليه.

خذ مني، ولا ترد هذا.

عصفور في يدك، خير من ألف على شجرة.

فاملأ محلك هيا بالروائح العطرة.

***

كتبت ما رأيته وسمعته بعد استيقاظي، لكنني لم أقتنع به، أي نحاس الذي أبيعه على أنه ذهب؟ وكأن إبليس كان ذاهب لأحد غيري لكنه ضل الطريق.

لكني بعدها انجرفت انجرافًا عجيبًا في كل المعاصي، كنت كثير السفر، لا أشبع من مضاجعة النساء، وتاجرت في الإكسسوارات الملونة بلون الذهب وكنت أبيعها على أنها ذهب صيني لا يصدأ.

في خلال هذه الفترة من حياتي كانت النوبات تأتي متكررة ولا أرى شيئًا في نومي إلا مأمون القزم. حتى أنني كنت أتخيله في يقظتي أحيانًا.

بدأ الناس في الحديث عن بضاعتي المضروبة فلامني ابني فاكتفيت برزق الأرض ثم جاءتني الرؤية الثانية بعد نوبة أخرى ورأيت بها شيطانًا آخر يدعى أبا مرة. وعلمت بالبحث أيضًا أنه اسم من أسماء الشيطان.

كان طويل اللحية، يشبه الشيخ حسان رحمة الله عليه،وخلفه علم عليه سيفان متداخلان، لونه أسود كعلم الجماعات الإرهابية خالٍ من الشهادتين. وحوله نفس النساء من الحلم السابق لكنهم بعبايات سوداء شفافة ونقاب أسود شفيف يزيد من اشتهائي لهن. وقال لي:

- تركتك لربما تستفيق.

وكنت صاحبًا لزلنبور الزنديق.

فكيف حالك وأنت عنيّ في الدنيا وفي أعماق نفسك ضعيف؟

ضائع ومنجس الروح النظيف.

أنا سأنتشلك من كل الغيوم.

وأعلم ان الشر يزول باستجلاب الهموم.

نعم أحدثك حقًا يا أخي!

فمن كان بدون هم، لا ينجو من العذاب.

لا تفرح، فالفرح سيمة العموم.

فتميز بالهم والهزم، لتكون هازمًا في اليوم غير المعلوم.

أنا أبو مرّة، في القوم غرة.

وعند نور درة.

أعلمك لأني أحبك ولا أريد منك شيئًا.

فخذ مني، وأنصت، ولا تجعل كلامي عبثًا.

قاتل في سبيل الله، تكن في الدنيا ملكًا.

وعند نور إن مت شهيدًا.

أأمر بالمعروف، وانهَ عن المنكر، وأي دين غير الإسلام أنكر.

***

بدأت بعدها المواظبة على الصلاة،بدون خشوع، كنت فقط أركز على النطق الصحيح والتجويد السليم، وكان وجهي عبوسًا، وكنت كارهًا للحياة، لم أجد أي حلاوة في الإيمان كما يقول البعض.

كنت دائم الاحتدام مع أقاربي وابني، حتى بدأت في مشاهدة بعض المشاهد من يوم الحشر في منامي.

في البداية رأيت المشهد أقرب ما يكون إلى اليوم الذي نعرفه جميعًا في الحياة الدنيا، حينما كنا نذهب الي المدرسة أو الجامعة لنأتي بالنتيجة المعلقة على حائط عريض. فتذهب إلى هذا الحائط لتبحث عن اسمك فهنا الكتب كلها منشورة على حائط صلب كبير، وكل كتاب مكتوب عليه الاسم، فينادي المنادي بالأسماء فيذهب أشتات من الناس ليأخذوا كتابهم، وكان كل واحد منا يعرف مكان كتابه وفي الطريق إلى الحائط تجد الوجوه تبدلت فتعرف من قبل أن تؤتى كتابك مصيرك المحتوم فتجد وجوه ابيضت وأخرى اسودت وتظل وجوههم تسود حتى تصير كما الصخرة السوداء، وحتى أعينهم تَسْوَدُّ. فلا يرون شيئًا فيبدؤون النواح وطلب العون من

شركائهم، فلا يجدون شيئًا، ويحاسب كل امرئ بما نطق فاه، وما نظرت إليه عيناه من أول إدراكه لذاته حتى يوم الوفاة.

منذ ثلاثة أيام في منامي سمعت صوتًا عذبًا ليس كعذوبته شيء. يقول:

"تلقاني في روحك ولا تلقاني، أراك في كل لحظة ولا تراني، أنت مني وأنا لست من شيء، أنا النهار في وضحه، وأنا قلب الليل ومهده، أنا الممسكُ بكل القواعد، وأنا الأصل وكل الصواعد."

فذهبت إلى الشيخ يحيى صديقي، الذي أبرحته ضربًا منذ أعوام عديدة، لأنه كان يحيد أبناءنا عن طريق الحق، ويساوي ما بين المسلم صاحب شفاعة النبي بالنصراني الذي يشرك بالله وينسب له الصاحبة والولد، لكنه صديقي ومفسر جيد للأحلام.

وسألته:

– هل يعقل أن يكون الله قد تحدث إليّ بعد كل ما فعلت؟

فقال:

– "أنت انعكاسه وكل شيء في هذه الدنيا انعكاس. فضوء القمر انعكاس للشمس والقمر يعكس ضوءه في الماء. والثلج على سفح الجبال ينعكس ليرد نور جديد حول القمر. والله جل في علاه، هو النور الأصلي فكلما ازداد قربك منه يصبح انعكاسه عليك أكثر وتزداد نورًا حتى يظن الناس أنك نور في الأساس. ولكن حذار! لأن كل انعكاس التباس. فهو الكلم وأنت الاقتباس. هو نور السماوات والأرض ولتسألنّ جميعًا في يوم

العرض. ذكّرك هو بنوره الذي في كل كن وكائن وكان، وعليك أنت الاختيار بين السمو والامتهان. إما أن تمشي في نوره فتستنير وتنير وتنار، وإما تضل السبيل فتُظلم وتَظلم، فأنت الذي رضيت على نفسك أن تستثار."

انشرح قلبي وصليت لأول مرة بخشوع غير مسبوق، وجاءتني آخر نوبة صرع اليوم ونمت بعدها وسمعت نفس الصوت العذب يقول:

- "بت تشكي كل يوم فعلمت أنك شكاي. وظللت تحكي غلبك لمن سواي." فرددت قائلًا: "يا رب كانت الدنيا على نفسي عاتية. وما كانت نفسي ظالمَة أو باغية، إلا لأيام فانية، وهي لك الآن آتية."

فقال:

- "ما كلفتك إلا ما تطيق نفسك، وكنت أجعل بعد عسرك يسرك. فاستمسكت بعسرك حتى في يسرك، ويا ليت الذي أهدرته يدرك. فهلم على الصراط بجسدك. فيه تمشي أو تزحف وحدك. اليوم كل ما كان لك يترك. فإذا وقعت تصلَ نارًا حامية، وإذا نجوت تلقاني بعين صافية."

ثم حوسبت في الحلم، وذقت العذاب وعفى عني التواب. فأذن لي حينها باللقاء وظهر نوره في كل الأرجاء في قلبي وعقلي وروحي. تكلمت ولم ينطق لساني وكأني في مكاني تسمرت كنت أراه رؤية العين ورؤية النفس. رأيت نوره قد تغلغل في أنحائي كلها، وما المحاسن في وصفه تليق. والوصف نفسه من حسنه يضيق، ولا المعاني تعني شيئًا في حضرته، ولا الكلام يبلغ المنتهى في عزته.

صدقت حينما قلت بأنك أنت نور السماوات والأرض، نور على نور، لا يبلغهُ طولٌ ولا عرض، أنا ذاهب إليه..

وربما كل ما رأيته ما إلا خيالات مريض بالصرع، وحتى كلام الشيخ يحيى، من الممكن أن يكون خاطئًا فمنذ يومين رأينا الشيخ يحيى ينظر للصليب المعلق على كنيسة بلدتنا، وكأنما حبيب ينظر لمحبوبته.

ثم بكى في خشوع. أظنه من كثرة التفكير في الله قد كفر به. تعجبنا جميعًا ثم علق رجلًا قائلًا:

– انتوا مستغربين ليه؟ الشيخ يحيى ملوش ملة ولا دين، دا راجل مجنون رسمي!

وربما قد صدقته، لأنني مثله (مجنون رسمي).

أحمد النجار

2014/10/20

***

الكاتب

سألت الشيخ يحيى عما يرى فيما ادعى أحمد، فقال:

- هو مريض يا بني ولا يعلم ما في النفس المريضة ولا الصحيحة إلا الله. لكنه كان صديقي وقد مات بعد التاريخ المذكور في آخر الرسالة. كثير من العباقرة كانوا مرضى بصرع الفص الصدغي. فهو إما مرض تسبب في الشتات الفكري، أو أنه كشف لم يتحمله الجسد فنتج عنه المرض. وعلى كل حال يا صديقي، هو رأى ما نعلمه جميعًا، ولم يضف شيئًا إلا الرؤيا. ولو كان ما رآه شيئًا لا نعلمه، فما يدرينا أنه صحيح.

- وهل تظن حقًّا أن الله قد تقبله بعد كل ما فعل؟

- الميت في حياتنا كشخص لا يرد على هاتفه وأنت تتساءل ما الذي يمنعه من الرد هل أصيب بمكروه، او أنه في غمرة من السعادة، أو أنه مجرد نائم ولا يشعر بشيء من حوله؟ لن تعلم إلا إذا ذهبت إليه ولن تذهب إلا أن يشاء الله.

– ماذا حدث حين وقفت ناظرًا إلى الصليب، في خشوع قبل حادث الكنيسة بنحو ثلاثة أشهر، ما الذي رأيته في الصليب يا شيخ يحيى؟

– حينما رأيته على الصليب، ما كنت أنظر إلى الصليب، كنت أنظر إلى هذا النور الساطع منه. رأيت الله على الصليب لأن آخرين قد رأوه عليه، وهو موجود أينما تَرَه، وكما نراه في كعبة حجرية لا تدرك أنها مقدسة، نراه في صليب من خشب لا يدرك أنه صورة من صور الله. لا تعنيني مهاتراتكم، فهو الله لمن يراه، واحد باختلاف الصور.

لم أقتنع بكلام الشيخ يحيى فقد تخطيت مرحلة تقبل الأديان بجميع أشكالها، وروعة التصوف. والآن أصبحت موقنًا بأنها مجرد فعل بشري تام، أما وجود الله، فأتمنى أن يكون موجودًا، لكني لا أدري إن كان حقًا موجودًا، أم هو وهم من صنع الإنسان، أيكون مصيري يومًا الإلحاد؟ كل الثوابت تنهدم بداخلي، وتنسلب مني العقيدة تدريجيًا.

يا الله إن كنت موجودًا، فأنا واثق بكمالك وإن كنت خلقتني فحتمًا أنت تعلم جيداً كيف يعمل عقلي.

هو لا يقبل تلك الإجابات الجاهزة. لا يقبل الفتاوى والنظام الروتيني للعبادات. هو لا يقبل أن يرى فيك أي شر لأنك مجرد من الشر. يا رب أنت تعلم أنني لست من القطيع، وهذا لا يعيب القطيع. هم مرتاحون، جميعهم متيقنون من وجودك ومتيقنون من طريقة عبادتهم لك مهما تختلف. متيقنون أنهم أهل الجنة أو الحياة الأبدية إن اهتدوا لكن أنا يا رب لا أملك إلا عقلي، فاللهم قف بجانب هذا العضو الضعيف الذي خلَقت.

كنت قد انتويت بعد أول لقاء بمريم أن أسألها إن كانت قد ضجرت من تقبيلي ليدها. لكننا تحدثنا بعدها كثيرًا ولم تُبدي أي ضيق، وتحولت الرسائل إلى أحاديث مطولة في الليل، ونظرات هائمة تحوي الكثير من المشاعر حينما ألقاها في بهو الفندق.

كثرت لقاءتنا، وأصبحت أراها كل يومين تقريبًا، وتطورت لغة الحوار بيننا. أقول لها أنني أفتقدها صراحةً فمرات لا ترد ومرات أخرى تقول على استحياء أنها أيضًا تفتقدني.

أحاول أن أطيل النظر في عينيها لعلّني أجد أي نظرة تعني القبول بالقرب فأقترب أو الوعيد فأبتعد كانت دائمة الحديث عن حبها للنيل الذي تسميه بحرًا، وشتان ما بين هذا وذاك، كنت معها في حالة ترقب وتحفز، حتى لا أهين نفسي بابتعادها عني.

في كل الحالات الطبيعية، يتقدم الرجل على المرأة بالإفصاح عن المشاعر. لكن مريم امرأة متزوجة، فوجب أن تتقدم هي حتى ولو بتلميح صغير يفتح لي الباب لأدخل وأنا مطمئن. لا أشعر بذنب كعادتي، إلا بعد أن أنول ما أبتغيه،فيخنقني ويحوطني الذنب بعدها لكني أيضًا أبرر لنفسي أنها تتعذب مع زوجها وتستحق أن تحيا، هي لا تستحق الضرب ولا الإهانة ربما فقط في المتعة الجنسية، فقد تخيلتها مرارًا مكبلة وعارية تستجديني عطفًا أن أطفئ نار شهواتها..

***

عامر

(أكلنا الذئب)

نحن عشـــرة إخوة من نفس الأب. سبعة منا من أم وثلاثة من سيدة أخرى، وكان أبونا الحاج محسن الذي لم يحج قط حلاقًا،وكنا نقتات اللقمة بخلع الضـــرس منه. فكان حريصاً حتى البخل معنا وكان فضفاضاً واسع الكرم مع زوجته الثانية، وحينما ذهب إلى ربه -أو إلى النار وماذا يدريني!

لم نرث منه شيئًا إلا منزلاً بغرفة واحدة في بيت لا يصلح لعيش الحيوانات، وامرأته الثانية والأولاد الثلاثة كانوا ما يزالون لهم بيت أحسن من بيتنا بكثير.

كانت أمي تختلف عن الأمهات. دائمة الشجار على توافه الأمور. كانت تفتعل الفتن فيما بيننا، وتريدنا أعداء، وإن رأتنا على وفاق تجن وتغضب. ففي مرات كثيرات كانت تقتحم الباب علينا وتجدنا نتحدث ونضحك فتصيح فينا كأننا نفعل شيئًا محرمًا. وتتمتم عليَّ مع أخي ثم تتمتم عن أخي معي،ونفس الحال معنا جميعًا فهكذا تربينا. وتجدنا على هذا الحال إلى الآن بعد وفاة أبي وأمي وزوجة أبي الثانية، التي لطالما أحببت أن

أذهب إليها، فكنت أجدها حنونًا. وكانت أمي وباقي إخوتي يجدونها ماكرة وتسخّر الجان لتكسب حبي كما فعلت مع أبي، وأتذكر في طفولتنا أحيانًا عندما كنا نبيت في بيتها كنا نرى أشياء ونسمع أصواتًا ليكن، لقد أحببتها على أية حال، وكانت حنونًا معي، فكانت هي الأم..

اليوم حالنا كالغيم، فلا يمر أسبوع كامل حتى تجد أحدًا من إخوتي قد افتعل مشكلة مع الآخر. وأما أنا، فأحاول دائمًا الصلح فيتهمونني بفعل هذا لإرضاء مصلحتي وأنا أكثرهم استغناء.. فأنا الوحيد الذي أكملت تعليمي وتزوجت من امرأة متعلمة مثلي، لكنها مطلقة للأسف، كانت متزوجة بيحيى الكافر، ومن أمرّ الأشياء على الرجل زواجه بامرأة قد استشعرت من قبله رجلاً آخر، كنت أتمنى لو تزوجت امرأة بكرٍ، لكنه النصيب..

أنا تاجر ملابس وصاحب محل ولا يعود أحد من إخوتي عليّ بأي منفعة. فتارة أجد أخي النجار يغتابني ويقول إني حرامي، فتلومني زوجتي لعدم مواجهته ولا أبالي. وتظل دومًا توبخني وتدعوني بأني ضعيف الشخصية. وأما هم، فيقولون نفس شيء، إني ضعيف الشخصية أمام امرأتي. فيكاد كلاهما أن يطمس ما تبقى مني محاولة لإرضاء كلا الجانبين.

اليوم اتهمتني أختي الكبرى المقتدرة ماديًا جدًا، أني حينما زرتها البارحة سرقت زوجتي خاتمها الذهب، وقالت ما قالت فانكســـر قلبي.

أرى أن معها حقًا في ادعائها عليّ، فأنا المخطئ منذ البداية. هي لا تحبني ولا تودني ولا ترى داعي من الأساس أن أزورها.

قد قررت اليوم أن أنقطع عنهم وأسمع كلام زوجتي منعًا للإهانة. فقد أكلنا الذئب ونحن عصبة، وإنا لغافلون وعن حقائقنا تائهون.

أما أولادي، فيتهمونني بأنني أب صارم، بدون قلب، وأنني بخيل. وإن كانوا لم يقولوا لي هذا صراحةً، إلا أنني سمعتهم كثيرًا.

أنا أخاف عليهم. أريدهم أن يقدروا قيمة المال الذي اكتسبته كله من تعب سنوات وحيدًا بدون أب أو أم.

عامر خاطر

2014/12/5

***

الكاتب

– لماذا يحكي الناس تفاصيل حياتهم يا شيخ يحيى؟ لماذا لا يكتفون بالدعاء؟ ألا يظنون أن هذا البيت مجرد أداة لتوصيل دعواتهم إلى الله؟

– الشيء الوحيد الذي بقي من فكرة البيت، هو أنهم يكتبون عن حياتهم ببعض تفاصيلها، وكان حسان يستغل ذلك، فقد كان يتسلل كما نفعل الآن ويقرأ كلامهم، ثم إن حكى أحدهم له عن نفسه شيئًا سبقه في تكملة ما يعرفه، فيظل الناس مقتنعين أنه مبروك.

المقامات والبيوت المباركة عادة قديمة لكن هذا البيت حديث وفكرته غريبة وغير مألوفة، وهذا ما أثار فضولي.

مقام سيدي عمر قديم جدًّا، الحديث هو بيت النديم. المدفون تحته جدي الأكبر، وكان اسمه أيضًا النديم، أما البيت فجدي هو الذي بناه.

كان يوجد بالبيت ورق قديم أصفر اللون، وعلى رغم من كثرة الأوراق فإنني اتفقت مع الشيخ يحيى على نشر آخر الرسائل والتي ألقيت آخر سنة أو سنتين على الأكثر، وهذا بالنظر إلى التواريخ المكتوبة في آخر

الورق. ثم البحث عما إذا كان من كتب في التواريخ المنشودة له رسائل اخرى قديمة أم لا. وربما أفردت لباقي الرسائل كتابًا آخر أو كتبًا أخرى. ولكن دعنا من الأموات الآن.

***

ساجدة

(سجينة الحصار)

التفرقة كالمطرقة. تدق على الرأس والقلب مع حدوث كل موقف تشعر فيه أنك أقل ممن تساويت معهم من قبل الخالق في الحقوق والواجبات تتساءل:

ما النقص الذي بداخلك كي تكون في المستوى الأدنى؟!

ماذا فعلت لكي ألقى ظلمًا؟! ما ذنبي أنا في أنني قد خُلقت أنثى؟! أإلى هذا الحد يقدسون قضيب الذكور، وتختلف المعاملة، ويحتوي الأب المشكلات لمجرد أن هذا الابن خلق ذكرًا؟

أحب أخي مُحب جدًا. فهو حنون، وملتزم دينيًا، وأخلاقيًا، لكن أبي يفضله عليَّ تفضيلاً لا أفهمه بل أنني أتعجب أحيانًا منه! هو هذا الشخص الذي يرضخ لأي قرار قد اختاره أخي، حتى نبرة صوته تختلف، حينما يتحدث معي أو مع أمي ويكون عبوس الوجه، وعالي الصوت أما مع أخي فيتبسم، ويكون صوته منخفضًا.

الغريب، أنه كان قديمًا يعامله معاملة سيئة جدًّا، أسوأ حتى من معاملته لي لكنه لما أتم سنوات التعليم الجامعي تبدل حاله معه، فظننت أنه سيتبدل معي أيضًا، لكنه بقي كما هو.

يا ليتني أترك له هذا البيت يومًا لا أريد الزواج، لكنه هو الحل الوحيد. فمحال أن أستقِل مثلاً وأذهب لأعيش وحدي. بالطبع، أردت الزواج في بعض الأوقات كمَخرج ومهرب من بيت الأهل. فهذا حال معظم البنات في بلادنا التعيسة التي تعيش بها البنات حبيسة.

في حالتي، الدافع للهروب أكبر. فأبي سجّان هذا البيت الذي أعيش فيه. فهو كثير الغضب وغضبه صخب وثورة وإهانة بدون إدانة. وهذا حاله منذ أن أدركت وجوده ووجودي. هذا بالإضافة الى غرفتي التي جعلتها سجنًا إراديًا لي في الساعات المعدودة التي أقضيها بالمنزل.

لا أنكر فضل الله عليَّ بالرغم من ادعائي الدائم بأنه لا يسمع دعائي، لكني أرى رزقه علي في أشياء كثيرة.

فأنا فتاة سمراء حسناء مصرية الجمال، في السادسة والعشرين من العمر. أعمل بشركة ذات سمعة طيبة، وأتقاضى مرتبًا معتدلًا وبالرغم من أن أبي قد أفلت يديه من كل احتياجاتي المادية، لكني أعيش عيشة كريمة. بالطبع أطمع في المزيد، ولكن أديم الحمد بما هو موجود وأطمع في امتلاك المفقود.

وهذا، بالإضافة إلى الأصدقاء الكثيرين الذين يحيطون بي، ورحمة ربي عليَّ التي تجسدت كاملة بداية من شهر تقريبًا، حينما وجدت قلبي قد تعافى كليًّا من حب هذا المخلوق الذي داومت على حبه لأعوام كثيرة، وربما أحببته منذ الأزل..

وقبل إتمام شفائي من حبه كنت أبكي كل يوم بكاء يصاحبه وجع لم أدركه قط، ولم أكن حتى أعلم بوجود مثل هذا الوجع. فقد عاهدني ولم يكن يومًا للوعودِ خليلاً فنقض العهد واستبدل بحبي حبًّا بديلاً ببعض الحجج البالية التي لم أجدها مبررًا، تركني. فداومت الصـــراخ والعويل، وكان قلبي له ذليلاً.

وأما الآن، فسلام عليه حتى الأبد البعيد. فلا أنا أسامح ولا أنا أطارح الغرام لقلب بغيض. وجوده وإن وُجِدَ، عندي عدم، ولم أكره الحب لهجره،فقلبي عتيد،وإن هو أحس يومًا بالندم، فليهم بخبط رأسه في الحديد.

وأضيف على نعم ربي النعمة الكبرى والكنز العظيم، أمي فهي قطعة من الجنة أمتلكها على الأرض.

وبالرغم من كل هذه النعم، لا أدرك السعادة، والأصعب من إدراك السعادة،أنني لا أعرف حتى ما الذي يجعلني سعيدة ربما قصة حب ومواعدة ولمسة يد وهذه اللهفة العنيفة التي نشعر بها في البدايات؟ نعم هذا حقًّا ما أريده.

لا أمتلك أي موهبة أو هواية تبعث إلى قلبي سعادة. ولكني أعلم جيدًا، أنني أفتقر هذه الرغبة الملحة على معظم البنات في سني. الرغبة التي خلقنا بها نحن عامة النساء (الأمومة).

على الرغم من أنني أديم التفكير في كل شيء، فأبدأ بتخيل يوم زفافي ثم أطفالي ومدارسهم،وأخلق السيناريوهات المتوقعة لحياتي ووضع فرضيات ونظريات، ثم إعادة النظر والتخيل، حتى أنني أحيانًا أتخيل موت بعض الأحبة وأبدأ في تخيل إحساسي وأنا أفقد هذا الحبيب، فأبدأ في البكاء والنحيب.

أظل كما أنا فظة وقليلة المشاعر تجاه من أحبهم، لكن هذا لا يشكل لي متاعب كبيرة فكل من يعرفني يعلم عني هذا ويقدره حتى أمي. فبالإضافة إلى إدراكها لي، فهي أيضًا مثلي. ولكن كل منا يعلم مكانته عند الآخر.

الغريب، أنني أنجذب الى الرجال الذين ينهجون هذا النهج من البخل في المشاعر ربما لأجد دافعًا لنفسي لأفصح عن مشاعري، أو لأنني أحب دائمًا التحدي في كل شيء.

أنا حقًا الآن مكبلة الأيدي وسجينة الحصار أرى الدنيا ببرود الثلج وأنا على جمرٍ من نار أخاف من كل شيء وجد ولم يوجد أخاف حتى من خوفي الكامن خوف أن ينقص. أخاف ألا أخاف، فيفزعني القدر. أخاف بعدد أنفاس البشر.

يا رب، حررني!

ساجدة عامر خاطر

2014/12/21

الكاتب

رجع زوج مريم من السفر، لكن عودته لم تمنعنا من اللقاء، فهو لا يعود إلى البيت إلا في أوقات متأخرة. ولا يمنعها من الخروج لانشغاله عنها.

تركت الفندق لأنني مللت منه. ولسبب آخر،وهو أنني نويت أن أدعو مريم لبيتي، بيت أبي الذي ورثته بمنطقة الكابلات، وتحديدًا، عند تقاطع شارع الكابلات مع شارع بورسعيد، الذي يطل على ترعة الإسماعلية، وبرغم حالتي المتيسرة فإنني لا أريد تركه.

فكّرت كثيرًا في الطريقة. وأخيرًا، قلتها صراحةً وبدون أي مقدمات:

– يا مريم لنلتقي في بيتي اليوم،لأنني متعب، ولنجلس مرتاحين، لأن من الممكن أن يراكِ أحدهم بصحبتي وأنتِ متزوجة، فنضع أنفسنا تحت رحمة ألسنة الناس. أيضًا، لكي أعد لكِ قهوة بيدي لم تذوقي مثلها من قبل.

وافقت على الفور. فعرضت عليها أن آتي لآخذها، لكنها قالت إنها ستأتي بمفردها.

لما جاءت إليّ، كان التوتر يظهر عليها جليًّا، أعددت لها القهوة.

ثم فاتحتها في وجوب طلاقها:

– يا مريم كُل منا يُحب الآخر، فما الداعي من تأجيل طلاقك؟

– أنا لا أُوجل شيئًا، كل ما هنالك أنني خائفة من مصير ابنتي.

قلت لها:

– ستعيش معنا..

غَيَّرَت الموضوع، وسألت عن الكتاب المستقر فوق الطاولة، الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي.

– وهل يوجد إنسان كامل؟

– يوجد إنسان يحاول الارتقاء، ثم الإنسان الكامل هو نبي الإسلام محمد.

مريم وهي تبدو غير مهتمة بتكملة الحديث الذي افتعلته فقط لتغيير الموضوع:

– امم.

اقتربت منها، وأخذتها تحت ذراعي، فغاصت بداخلي كما القطة التي تحتاج إلى الحنان، مريم هي الأنثى المقدسة، لا بد أن تُعبَد.

ابتعدت قليلاً لكي تنظر إليّ وهي لا تزال تحت ذراعي. فأصبحت وجهانا مقتربين. فقبلتها قبلة طويلة. شعرت من فوري بسخونة جسدها،

وفي داخل كل منا نار تريد أن تتقد، وما من شيء يقدر على إطفائها، إلا اللقاء.

ابتعدت عني ومني هربت،رغمًا عنها،حاولت جاهدة أن تستجمع قواها وقالت إنها قد تأخرت ومشت وتركتني كالجوعان الذي بدى له الطعام شهياً، وبعد أن اشتم رائحته الذكية، اكتشف أنه ليس له، طردتني من جنتها.

ستذهب الآن إلى زوجها ليُطفيء نارها، وأما ناري أنا، فربما تحرقني عما قريب.

***

رامز

(كنيستي)

السادس من نوفمبر لسنة اثنتين وسبعين وألف وتسعة مئة، تاريخ أول حادثة اعتداء على المسيحيين،كان هنا في الخانكة، ثم توالت من بعده الحوادث والاضطهادات، فأصبح المسيحي كالمغترب في بلده، حتى أصبح الآن يبحث عن الاغتراب الحقيقي.

خادم كنيستنا هو أبي الثاني. ولم أرَ قط مثل هذا الترابط القوي في الدين الإسلامي، إلا في الجماعات الإسلامية التي تستغلهم.

كان الخُدَّام في الصغر يشجعوننا على الاندماج في أنشطة الكنيسة كافة التي يشــرف عليها خدام كثيرون.

إذا اعتبرنا أن المسيح نبيًّا مثلما يقول (الإخوة المسلمون)، فما كان لنبي من الأنبياء قدرات كالتي تميز بها المسيح. ولأنه معجزة بكل المقاييس، فقد ذُكِر في قرآنهم أنه كلمة الله، وذكر في أحاديثهم أنه سيأتي في آخر

الزمان. ذكر القرآن أن المسيح لم يصلب، فما الدليل على هذا؟ وما المرجعية لهذا الأمر غير القرآن؟

ديني دين المحبة لا يستبيح قتل أحد. ودينهم يكفر الناس أجمعين إلا الإرهابيين، يستحون دائمًا من تكفيرهم.

ديني لا يقيّد المرأة بلباس معين فأما الراهبات، فهن من اخترن هذا تقرُّبًا إلى الله. ولا أرى في أغلب بنات المسلمات المحجبات أي تقرب إلى الله.

ديني لا يعدني بمتع جنسية، ولا ببنات صغيرات ولبن وعسل. فهوسهم الجنسي يبيح لهم في الدنيا تعدد الزيجات كنبيهم، ويعدهم بالحور في آخرتهم.

المشكلة أن أسبابهم واهية وغير مقنعة حينما ينتقدون ديننا. يتساءلون: من كان يرعى العالم في الثلاثة أيام التي مات بها المسيح؟ ولا يعلمون أنه مات بجسده الذي جاء به لكن روح الأب لا تموت.

يتساءلون: أكان الله يحتاج أن يضحي بابنه كي يرفع عنا العذاب؟

فأتساءل أنا:

أكان لله أن يختبرنا أصلاً ويجعلنا نخوض كل هذه التجارب ليصطفي منا الأخيار؟

كلها تساؤلات مباحة لكن الإيمان هو الإجابة الواحدة، الإيمان هو الراحة التامة.

إيمانهم التام مبني على الخوف منه، أما إيماننا مبني على المحبة.

وإيماننا بالمخلص الذي تألم كي نحيا.

يستشهدون بآيات من الإنجيل، أن المسيح ليس الله. لاهوته لم يفارق ناسوته قط، ولكنه في هذه اللحظات كان يتحدث بصفته الناسوتية، أي الابن الذي يخضع إلى أبيه الرب. لأنه جاء جسدًا كي يشعر بنا وأطاع كما نطيع، حتى موته على الصليب وكان في هذا الوقت نائبًا عن البشـــرية بصفات الأب ليقدم لنا الخلاص، ولهذا كان يجوع ويأكل ويتعب.

لا أعلم لماذا أكتب هنا الآن، ربما لأنني أخشى الاعتراف، ولأن الشيخ يحيى قديمًا، قال إن البيت ملك للجميع، لكن حسان كان يمنعنا، الشيخ يحيى هو الأقرب إلى كل المسيحيين، وأظنه يؤمن بتعاليم المسيحية لكنه يخاف الإفصاح.

كنت متفوقًا في دراستي، إلا أن حلمي الذي تمنيته منذ الصغر، أن أكون لاعب كرة محترفًا، لكن أهلي لم يساعدونني على هذا الحلم. ولما كبرت،قالوا إن المسيحيين ليس لهم مكان في هذه اللعبة. لم أكلف نفسي عناء المحاولة في التقديم في اختبارات النوادي خشية أن أصاب بالإحباط. أيضًا، لأن جميع زملائي في الكنيسة، قالوا لي أنه شيء معروف ولن أُقبل، وقد رأيت بالفعل أن المنتخب المصري وكل النوادي خالية من كل المسيحيين، فلا بد أن كلام أصحابي صحيح، فاكتفيت بلعب الكرة في

الكنيسة وأنا صغير، ثم استئجار الملاعب الصغيرة، بالليل، واللعب مع الأصدقاء.

معاملة المسيحي في بلادنا تنقسم إلى قسمين، قسم يعاملك على أنك كائن غريب، يشعرك أن رائحتك كريهة إن جمعته الظروف بك رغمًا عنه، والجزء الآخر، يعاملك بود شديد مصطنع، ليثبت لك أن دينه قد أوصاه بالمسيحيين كما وصاهم بالحيوانات والرأفة بهم، وأنت تعلم بداخلك، أنهم في ظهرك على يقين تام بخلودك في النار.

أقرب صديقين لي من المسلمين، والوحدة الوطنية الخرافية ليست هي السبب، بل لأنهم الأغلبية دائمًا، ولذلك احتمالية أن يكون لك أصدقاء منهم كبيرة.

الصديق الأول هو زين، وهو لا يعلم شيئًا عن الدين، حافظ لكتاب القرآن عن ظهر قلب، لكنه لا يعلم أي تفسير لأي آية فيه.

وأما الصديقة الثانية، فهي أخت زين، نوران.

حاولت الابتعاد عنها كثيرًا لكني لم أتمكن، ولم تسمح لي بالابتعاد، لأنها تحبني جدًّا كصديق، وأنا أحبها جدًّا، كحبيبة، ولم أبحْ لها بهذا ولا لأي أحد. سمراء هي، وطويلة، وعيناها سوداء براقة، مرحة إلى أبعد الحدود، تخبئ شعرها تحت قماشة فتمنع بها بهاءها.

نوران هي حب بعيد المنال، بل مستحيل المنال.

لعلني ألتهي عنها بمشكلات أبي وأمي التي بدأت منذ أن فتحت عيني على الدنيا فصوتهما مسموع دائمًا حتى للجيران، فأحاول الهروب من نوران باندماجي في مشكلاتهما،وأحاول الهروب من مشكلاتهما في انشغالي بالعمل كمحاسب في أحد البنوك، وأهرب في النهاية بالصلاة في الكنيسة التي تجري في دمي.

أشعر بالذنب كلما ذهبت إلى الكنيسة. لكنها صحوة ضميري إذا نام، وبيت جسدي إذا استقام، فهي التي ترد روحي في جسدي، وتمنع نوحي عني.

إذا لم يكن المسيح هو الله فمن الله؟ إلهي واحد لا أشرك معه أحد.

كلمة الله هي الله، والله يُعرّف بكلمته.

هو أب وابن وروح قدس.

أيها الأب القدوس،الذي يحب رجوع الخطاة، وقد وعدت أنك مستعد لقبولهم. انظر يا رب الآن إلى نفس خاطئة قد ضلّت وتاهت في أودية العصيان زمانًا طويلاً. فيه تمرمطت وشعرت بشقاوتها، لبعدها عن ينبوع خلاصها.

الآن تتقدم إليك، تطلب منك تطهيرها من الأدناس والأقذار التي توحلت فيها. اقبلها، ولا ترفضها، فإنك إن نظرت إليها بحنوك وعاملتها برحمتك تنقت وخلصت، وإن أهملتها بادَت وهلكت.

امنحني يا رب نعمة بها أتقوى على الدنو منك بإيمان وطيد ورجاء تام، لأعترف بذنوبي وأكره العودة إليها، وليبكتني روحك على آثامي.

أَنِرْ قلبي لأرى كم أخطأت وأسأت وتركت وأهملت. وامنحني عزمًا على عدم الرجوع إلى الإثم لأثبت في حفظ وصاياك وأحيا لمجد اسمك القدوس. آمين.

آمين. آمين. آمين. أؤمن. أؤمن. أؤمن. واعترف إلى النفس الأخير. أن هذا هو الجسد المحيي، الذي أخذته أيها المسيح إلهي، من سيدتنا كلنا والدة الإله القديسة الطاهرة مريم، وجعلته واحدًا مع لاهوتك بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، واعترفت الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطي، وسلمته عنا على خشبة الصليب المقدسة، بإرادتك وحدك، عنا كلنا. بالحقيقة أؤمن، أن لاهوتك لم يفارق ناسوتك لحظة واحدة ولا طرفة عين، يعطي عنا خلاصًا وغفرانًا للخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه. أؤمن. أن هذا هو بالحقيقة. آمين.

رامز علاء

2015/1/1

***

الكاتب

- يا شيخ يحيى، لم أجد في كلام رامز أي شيء ليستغفر الله عليه!

إنجيل يوحنا يقول:

"وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة، لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور، ولا يأتي إلى النور لئلا توبخ أعماله أما من يفعل الحق فيقبل إلى النور، لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة".

ولأن حبه لنوران كان في الظلام، وكان يخفيه، فقد رآه ذنبًا.

والأعمال السيئة يا ولدي ليست ما نعرفه من خطايا فقط، بل تشتمل أيضًا على الظلم والكره، والكره هو حجر الأساس لكل الشرور، كره النفس وكره الآخرين،وقد ظن رامز أن حبه لنوران شر من شرور النفس.

***

بعد لقائي المنزلي الأول مع مريم، بعثت لها رسالة لأستفسر إن كانت قد غضبت من تقبيلها، ولم تكن نيتي حين سألتها أن أعلم إن كانت غاضبة

أما لا، أنا أعلم أنها ليست غاضبة، بل كنت أسأل لأسترسل معها في الحديث عما قد حدث. وهذا ما فعلت، فأطلنا الحديث في هذا الأمر:

- هل أغضبتك القبلة يا مريم؟

- لا.

- طيب، هل سعدتِ بالقبلة يا مريم؟ هل شعرتِ بحالي؟

وهكذا استُكمِل الحديث حتى تطرقنا إلى سبل العشق الجسدي الذي يظهر عشق الروح. إلا أنني قد عاهدت نفسي والشيخ يحيى بألا أكتب عن الجنس كثيرًا... (إلا في السياق الدرامي.)

***

ساندرا

الزهرة

تبدأ حياة كل فرد بالبكاء، ثم العيش بدون إدراك. فلا يعلم طفل على أي دين خُلِق، ولا يعلم أي إله يعبد. هو لا يعلم حتى أنه خُلِق، أو كيف خُلِق. يتعلم كل يوم شيء، وبالتعلم يدرك ما حوله بالتدريج، فإذا كان قدره أن يتعلم أشياء خاطئة، أو بطريقة خاطئة، ما صح إدراكه، ويظل طوال حياته في تيه وربما مات على هذا التيه، وكأنه عود ما أورى، أو ربما تدركه أحد الأيادي تصلح له بصره فينظر ثم يرى، ثم يُرى، فيدرك أنه وَرَى، الشيخ يحيى هو الذي أدركني..

الهواء منعش في بيتي، ربما لغيري. أما أنا، فأشعر، وكأنني لا أستنشق شيئًا. الآفاق أمامي شاسعة،لا نهائية، لكنها بالنسبة لي مجرد لوحة أو صورة التقطت بيد شخص يجيد التقاط الصور، تنبهر بالمنظر لمدة كبيرة ثم تعتاد عيناك عليه فتفقد الإحساس به.

قبل عدة أعوام، ربما عامين، كنت حرة. لا أنكر أنني كنت محرومة من مشاهدة المنظر البديع بالنسبة إلى كل الناس، فقد كنت أسكن مع أهلي في شقة تحوطها الضوضاء التي تقود إلى الجنون، هنا في هذا الحي، الهواء كان، ولا يزال ممتلئًا برائحة القمامة التي تكسو الشارع، لكنني كنت حرة.

كان حالي كل يوم في شأن، وقد أصبحت في شأن آخر اليوم.

كنت أستيقظ باكرًا أحيانًا عن موعد كليتي فأعد الشاي باللبن ثم القهوة وأستمتع بتدخين السجائر خلسة بغير علم أهل البيت، ولربما علموا، لكنهم تغاضوا عن علمهم طالما لن أطلب منهم المال.

وفي الكثير من الأيام كنت أستيقظ قبل موعد محاضراتي بقليل فأرتدي أي شيء، فأنا لا أهتم بشكلي كثيرًا، وأرى نفســـي جميلة من دون إضافة شيء، كنت محبوبة في جامعتي من الجميع، جامعة بنها، كلية الهندسة، وإن كانوا جميعًا من المتدينين المسلمين،لكن الله قد خلقني بقدرة التعامل مع كل أنواع البشر.

كنت أنتهي من يومي الدراسي وأذهب حيثما أريد، أحيانًا كنت أذهب إلى أبعد الأماكن، محطة العتبة بمحافظة القاهرة، وأتمشـــى بسور الأزبكية وأشتري الكتب التي أريد. أو أتمشـــى على النيل. المترل الذي أسكن فيه الآن يطل على النيل العظيم، لكنني كنت أراه رؤية القلب حينها. كنت أنظر نحو المبنى الذي أعيش فيه الآن وأتمنى من كل قلبي أن أسكن به، وتمنيت أن أرى كل يوم هذا المنظر البديع، وكنت موقنة من أعماق قلبي أن شرفة تطل على النيل تكفي لأكون سعيدة مدى الحياة، لقد كنت على خطأ.

أنا قليلة النوم وكنت أعتبر هذا من أفضل النعم سابقًا، حيث إنني كنت عندما أعود إلى المنزل أستغرق في القراءة ثم أبدأ العمل.

كنت أرسم على ألواح من الخشب كلمات وأبروزها بألواح خشبية أخرى ملونة باللون بالأسود أو البني، فالإطار الغامق يظهر ما بالداخل، كنت أرسم حروفًا عربية متفرقة أحيانًا، وأحيانًا أخرى كلمات يطلبها الزبائن مني. وربما بعض آيات القرآن المنتشـــرة في اللوحات عامةً. كانت خالتي التي افتقدها تشجعني على العمل. لكنها كثيرًا ما قالت لي:

"مش حرام عليك يا بنتي القرآن اللي بتكتبيه ده؟ مش دا القرآن اللي بيقول علينا كفار؟"

فكنت أرد عليها قائلةً:

إنه قد تم فرضه علينا في المدارس، فلماذا لم تعلني رفضك حينها؟

كنا قديمًا نسكن هنا في الخانكة التي أزورها اليوم بسبب حادث الكنيسة الهائل الذي حدث منذ أيام معدودة، وجئنا إلى هنا لنُعزّي أقاربنا، ومعارفنا، وانتهزت الفرصة لأكتب وربما هي آخر مرة أكتب.

تعلمت القراءة من الشيخ يحيى، وتعلمت منه الرسم أيضًا. أود زيارته، لكن زوجي سيلاحظ عما قريب غيابي وسيمنعني من زيارته. سألت عنه وأهل البلدة كلهم يقولون إنه مجذوب. ضالون..

أبي وأمي تُوُفّيا منذ زمن بعيد فانتقلت للعيش مع خالتي، وتزوجت ابنتها الوحيدة من قبلي وهاجرت إلى كندا.

قابلت زوجي وأنا أبيع لوحة إلى عميلة وكان هو ابنها، فأعجبته لوحتي كثيرًا وكانت هذه اللوحة تجمع كل أشكال الرسم للصليب متداخلة لتصنع صليبًا كبيرًا، وحوله ألوان كثيرة متداخلة أيضًا كأن الصليب يسبح في الفلك.

فأعجب بي إعجابًا شديدًا لظنه أنني شديدة التدين الذي يريده. وقد أعجبت به أيضًا لما أبداه لي من تقديره للفن. مرت كل الأوقات بيننا سريعة، فمن شدة سرعتها لم أراها. كنت في غفلة مظلمة أفقدتني البصر والبصيرة.

تم كل شيء وتزوجنا، فبدأت بقياس ما بيننا من مسافات،فعلمت مدى البعد بيننا.

حاولت التقرب منه فعرفته على كتبي ورأى أن بعض الكتب تحتوي على موضوعات مثل التصوف إضافة الى الفلسفة وكل أنواع الكتب. فهاجمني وثار، ثم رجع عن غضبه واعتذر. لأنه أيقن، كما يقول، أننا يجب أن نقرأ عن أعدائنا لنصل إلى كيفية مواجهتهم!

لم أجد أي منفعة للرد عليه. فقررت أن أبقيه على غفلته كي لا أحتدم معه. فاكتفى بهذا التفكير الذي أراح باله وأراحني من العراك.

كان يقضي معظم أوقاته في العمل، وكنت أهدر معظم الوقت في شرفة أحلامي الأولى التي أصبحت فيما بعد واقعًا مفروضًا عليَّ. بالطبع لا

أنكر أنها تهون عليَّ كثيرًا، لكني الآن أجد رائحة القمامة أهون بكثير مما أنا فيه.

ظل زوجي مسالمًا لعدة أشهر، وبالتزامن مع توديع خالتي وزوجها اللذين قررا الهجرة عثر زوجي على بعض الأوراق التي كتبتها وكانت تحتوي على بعض معتقداتي بأنه لا يوجد شيء اسمه دين لكن الله موجود فحبه واجب والإيمان به واجب من دون اعتناق دين بعينه.

فأما التعبد، فلنا أن نعبده كيفما نشاء، حتى ولو بمعاملتنا الحسنة مع كل المخلوقات أو بالتأمل في خلقه، وهذه الحياة التي خلت من الأمان ما هي إلا نتاج التمسك بالأديان، بدون عقل وبدون فهم وبدون ثقافة، وبدون الالتفات إلى حقيقة الدين، الواحدة المؤكدة، وهي عبادة الله.

وكل ما جاء بعد هذا ما إلا أقدار، وهي التي جعلت من المسلم مسلمًا ومن المسيحي مسيحيًا. ثم التوظيف السياسي الذي باعَدَ ما بين أصحاب العقيدة الواحدة، فإنشاء الفِرَق تفريق والمذهب ذهاب بلا عودة.

والدين وسيلة لابتغاء مرضاة الله، فلا تقتلوا أنفسكم من أجل الوسيلة، وتنسوا الغاية الكبرى.

كنت قد كتبت هذا على لسان بطل لرواية لم تكتمل بعد، ولن تكتمل أبدًا. حاولت ان أشرح له أنها معتقدات البطل ولا تخصني في شيء، وكان لساني كاذبًا قليلاً،فأنا أعتقد هذا بالفعل. لكني اخترت العبادات المسيحية، وأنتمي إلى الكنيسة وأحبها في نفس الوقت، لكنه لا يفهم، فاتهمني بأني

منافقة لأنه يراني أذهب إلى الكنيسة وأواظب على الاجتماعات وحضور القداس، وقلبي غائب عنها. فمزق كل أوراقي وأخذ كل كتبي القديمة، ووضعها في صندوق من الورق المقوى وحرمني منهم جميعًا. وأخذني إلى الكنيسة وأجبرني على الاعتراف بخطيئتي،ولملم كل الأقلام والأوراق لكيلا أكتب ثانية، ففقدت كل شيء.

استمرت الحياة هكذا حتى حادث انفجار الكنيسة، وموت ابن عمته رامز، وجئنا لتقديم واجب العزاء وسوف نرد إلى البيت صباح باكر. فانتهزت الفرصة لأبوح عما بداخلي لعل بنتًا من بنات هذا الحي تقرأ كلامي، فتعي أن للهروب كروبًا ولكل زواج نتاجًا، فلا تتزوج لتهرب من ضيق حياتها فتكون كعصفور جُرِحَ جناحه فقطعه، ولو حكمت الأمور، سأخونه عن عمد مع أي قضيب يخلصني من هذه القضبان التي تحوطني معه، أو حتى أتحول الى الطائفة الإنجيلية الأقرب إلى قلبي.

أيها المسيح الحي في السماء، الرقيب في الأرض، أعني على ما أنا فيه.

أنا هنا في سفينتي التي هي جسدي، أقودها أحيانًا وتقودني أحيانًا، وتقودنا الرياح معًا مرات عديدات. رياح دربي كانت عاتية كادت من شدتها أن تفتك بي وبسفينتي. لا ألوم الرياح، فلكل بشر نصيب من هذه الرياح؛ لأننا خلقنا في كبد، ولكل منا رياح خاصة لا يتحملها غيره، ولن أقول إن الرياح كانت سببًا في تحويل مسار سفينتي، لأن من صنعني والسفينة والرياح، رسم المسار بإتقان لكي أَسبَحَ إليه وأُسبِّحَ له. كل ما أخشاه الغرق قبل الوصول، أو الاستسلام لهذه الرياح بدون حراك،

فأصبح ثابتة في بحر متحرك، أو يطردني البحر لأقرب شـاطئ مهجـور لا يعلم الناس عنه شيئًا، فأكون من الماء كمركب غرق أو كورقة تفتتـت أو كصخرة تآكلت أو كسمكة طُرِدَتْ إلى الشاطئ. أريد الوصول وأخـاف الوصول، وليس كل شيء بعد الوصول مقبـول، اذكـروني إن مـت، واعذروني إن أخطأت، وأدركوني إن عشت.

في بلادنا، لا تنخدعي برجل أبدًا. فحتى أحسنهم وأكثرهم انفتاحًا وتقبلاً للمرأة، يوقن بداخله أنه أعلى منك وله حقوق أكثر من حقوقك. وإن بدا منه احترام أو أعطى لك حقوقًا من حقوقك، ففي أعماقه واثق أنه يمن عليكِ وينتظر الشكر الكثير المبالغ فيه، وإن أخطأتِ أو طلبتِ أكثر، يبدأ بسـرد كل تنازلاته التي كانت، ووصف مدى عظمته واختلافه عن كل الرجال.

أما الرجل المنفتح حقًا، والمُقَدِر لقيمة المرأة الحقيقية والواعي بطبيعتها، لم أرَهُ متزوجًا. ربما يحب، لكنه لا يطيق الزواج! كالشيخ يحيى.

أنا قطفة من كل زهرة.

أنا نقطة من بحر مالح، ونقطة من نيل عذب، وخطوة من ركض مهرة.

أنا دمعة ما نزلت، ودمعة نزلت فتلاشت.

أنا يد طفل جرحت، ويد عجوز تدانت. أنا حسنة وذنب. أنا فرحة وكرب.

أنا نور صباح مشع، وليل قاتم.

أنا سلم وحرب.

كل أنواع الفن معرفة. والطريق إلى المعرفة يقود إلى الجنون أو المعرفة، وربما الجنون هو المعرفة، فهل التيه والإحساس بالشتات هو بداية طريق الوصول؟ أم أنه دليل علي استحالة الوصول؟

الوصول إلى الارتقاء بالروح ووصالها والوصول إلى معرفة الذات، وما الذات؟

ساندرا رأفت

2015/1/9

***

الكاتب

لمعت عين يحيى بذكر ساندرا. من الواضح أنها كانت قريبة له، ومن الواضح أنها الوحيدة التي تعلم عن البيت، فهي تعلم أن أحدًا ما سيقرأ رسالتها، لقد أعجبت بها بدون أن أراها، بالإضافة إلى أفكارها عن الدين التي تشبه أفكاري.

- يا شيخ يحيى صف لي ساندرا.

لا أعرف كيف أصف النساء، لكنها ذات شعر أسود ثقيل، وسمراء، وعيناها واسعتان جدًا، ولها فم كبير بغير سوء. شفتاها ممتلئتان وأسنانها بيضاء وجميلة.

- لقد شعرت أن أفكارها قريبة لأفكاري.

- كل الطرق تؤدي إليه.

- يا شيخنا، أنا دائمًا أخاف من انقطاع الوحي ومن نفاد الأفكار.

الفكرة كائن نوراني يهيم في الفضاء، يأبى الامتلاك، يلتقطه أحد مصادفةً، أو يسعى أحد لالتقاطه، فيصاحبه، أو يسعى آخر فيمتنع الكائن

ويتعالى عنه. أو ربما يتوه في الفضاء حتى يسقط على عقل كسول، فيأخذه العقل ويرميه بعيدًا، فيتوه مرة أخرى ليجده صاحبه.

صِفْ لي نفسك يا شيخ كما وَصَفَتْ ساندرا نفسها في آخر الرسالة، وكما تصفهم جميعًا حينما نحول الرسائل إلى اللغة العربية.

أنا غير منتمٍ لهذا الوجود.

لست موجودًا.

فأنا لست جسدًا، ذكرًا كان أو أنثى، أنا ذكر وأنثى.

أنا بواطن الأفكار التي لا تصاغ بالكلمات.

وأنا الكلمات.

وأنا الهمسات.

وأنا الفراشات الطائرات.

أهبط عليكم أحيانًا لأحيا كما تحيون جميعًا.

ثم أصعد لأحلق بعد السماوات.

أنا اختلاف في التفاصيل.

وتصديق الأقاويل.

أنا شحاذ في الطريق.

وأنا ثري ليس له صديق.

رجع الفأر ليزورني في نومي مجددًا، وقد طاردني اليوم حتى الهزم بدني. كان يقف أمامي بنفس نظراته الحادة فهربت منه مهرولاً. أريد أن أبلغ وجهة ما. أقف لبرهة فأظن أنني بلغت وجهتي، وأكاد حينها أقسم أنني في المكان الصحيح. فأغترب واضطرب فأتحرك مهرولاً فأنقلب، ثم أقف فأحس بروحي تنسلب. فأركض، فأركد، فأثبت، فتتحرك الأرض من تحتي بسرعة، فأتحرك معها، وكأنني أتحرك في مكاني، فأستسلم وباستسلامي أصل، أو أظن ذلك، فأجد نفسي على قمة جبل، فأقع وتسلب روحي كالعادة لاستيقظ مفزوعًا.

***

مُحِب المُحِب

الموسيقا تحيي الموتى، وكأنما الحياة كانت تتخللها موسيقا لا تنقطع. فحينما انقطعت فُقِدت الحياة، ولهذا أجد أمي حية كلما استمعت إلى الموسيقا، أين أنتِ يا أمي؟ استيقظت فلم أجدك، وكل يوم أستيقظ فيه لا أجدك. متى أستوعب أنك لست هنا الآن ولم تكوني هنا منذ أشهر، ربما غفلتي هذه هي ما تعطيني القوة لتحمل غيابك.

العيد في بيتنا كان في تلك الأيام التي يسافر فيها أبي كان يعاملني معاملة لا أجد من الكلام ما يعبر عن مدى صعوبتها وكم المعاناة النفسية التي سببتها هذه المعاملة لي.

وأنا في الخامسة عشر من عمري، مراهق يستعد لاكتشاف الحياة بكل ما فيها من جمال وكل ما فيها من حقائق مفزعة، قررت أن أكتشف كل شيء وأعلم كل شيء من وجهة نظري الشخصية وأجرد نفسي من أفكار أهلي ونظرياتهم الباهتة. اكتشفت بعد ذلك أن القرار لا يصح قبل التجربة وأن التجارب ستظل دائمًا تلاحقني كظلي إلى أن يحين ذهابي، وهي التي

ستحدد قراراتي. واكتشفت أيضًا أن الأحلام تحتجب عن الواقع ولا تظهر إلا في النوم العميق. لكنني اكتشفت أيضًا أن الحياة ما هي إلا خطوة وفصل من رواية طويلة لا أعلم بدايتها ولا نهايتها كل ما أعلمه جيدًا أن هذه الخطوة التي تسمى الحياة هي التي تقود إلى النهاية وتوضح البداية وتكشفها، لذلك لا يمكننا أن نخسر هذه الحياة، ولا بد لنا أن نضع بصمتنا فيها حتى إن لم يدرك هذه البصمة أحد، والحياة سوف تكف عن الحياة.

وصلت إلى هذا التفكير بعد ما فعله أبي معي يومًا ما. كنت قد انتهيت من يومي الدراسي وكانت أمي حينها موجودة لم تكن قد ذهبت بعد. رجعت من المدرسة فرأيت أبي جالساً مع أصحابه كان دائم الاستهزاء بي. في هذا اليوم مرر أصبعه على مؤخرتي أمام أصحابه، واستهزأ بي بكلمات توجع، فضاق صدري،وبكيت في غرفتي وحيدًا حتى جاءت أمي وامتصت كل الحزن والأسى. وقالت لي إن الحياة دار انتقال، اعمل فيها بإتقان، ولا تحزن لأن الحزن باب للشيطان. تمامًا كالغضب والحقد وما غيرهما. الحزن يأكل حياتنا. ملأتني أمي بالحب، فلم أجد أي مكان في قلبي للكره.

لقد التحقت بكلية عسكرية لأهرب من أبي، فتعرضت لأشياء كثيرة داخلها. يفعلونها دائمًا ليمحو شخصية الطالب ليصبح جزءاً لا يتجزأ من المنظومة،مطيعًا وتابعًا لها. تعلمنا الرضوخ في الحياة بالضرب كما تعلمناه في الكلية بالترهيب والعقاب،وللمثال وليس الحصر، كان ضابط الصف دومًا يأمرنا بترتيب الفراش مرارًا وتكرارًا حتى أنه كان يبعثره عمدًا، لنرتبه لعدة مرات متتاليات، وفي مرة طوح ملاءتي من الشرفة لأنزل وأنتشلها

وأنفضها وأعيد فرشها، والغريب أن ضابط الصف هذا كان في خارج الكلية صديقًا داومت على التتره معه مرارًا، فكان شخصًا ظريفًا. هذا وبالإضافة لمنع دخول الحمام في أوقات النوم، وقد رأيت في هذه السنوات العجاف الكثير من العجائب،فكنت أرى أحد زملائي من مدمني الشاي باللبن يأكل تفل الشاي ويمضمضه باللبن لعدم توافر الماء الساخن أحيانًا كشكل من أشكال العقاب! على أي حال، منا من محت شخصيته بالفعل ومنا من تحمل حتى أصبح ساديًّا فيما بعد، أما أنا وأظن أن غيري كثير، فقد بنيت لنفسي قوقعة فكنت أتعايش مع كل هذا، مطيعًا، متفهمًا ومأمورًا، ثم ضابط صف يعنت الطلاب، ولكن بداخلي أنا بكامل كياني وفكري وعقائدي ورفضي لبعض الأمور، ومرت سنوات الكلية، حتى رجعت واستقررت في العمل هنا وكأنني لم أرحل قط.

ما قابلت حبًّا في حياتي إلا مرات معدودات، وما بقي من هذه المرات شيئًا أذكره. فأما مريم فإن عذابها كان غرامًا.

مريم هي انحراف واعوجاج شبابي وهي أيضًا سبب نضجي وصحوتي. جميلة هي كالنهار، ومخيفة كليلة حالكة الظلمة أحببتها وأنا ابن الستة عشـــر عامًا كانت جنوني وشتات عقلي. كنت خاضعًا لها وأحب أن أأتمر بأمرها،حامي خزائن مشاعرها وصانع عرشها كنت أراها واحدة لا يصلح أن يكون لها شبيهة، لن تتكرر، وإذا قد خلق مثلها فقد كانت هي بخلق قديم. كنت أذوب في حبها وأهيم كنت أتمنى أن أكون نبضة من نبض قلبها أو أن أكون هرمونَ السعادة لجسمها أو كنت أي عرق هشيم في جسدها.

كانت حب المراهقة بالنسبة لي، وكان من الممكن أن تكون ذكرى جميلة تمتد معي إلى الآن لو كنا قد انفصلنا بسبب رفض الأهل، أو بسبب دوامة الحياة، لكنها لم تكن إلا جُرح دام بداخلي لفترة، ثم انطوى بعد حين، ومررت بعدها بأحاسيس مختلفة، اشتقت إليها لفترة ولفترة أخرى كرهتها، ولفترة كرهت نفسي، وندمت على غبائي معها وعلى ضعف خبرتي بالفتيات الماكرات، وافتقاري لمعرفة ماهيتهن وأفكارهن المتقلبة، وقد تغلّبت على كل تلك الفترات التي انقضت حتى علمت أنني لم أسئ لها قط، وأنني أستحق عن جدارة فتاة ناضجة تعلم ما هو الحب وربما أكتفي بفتاة تعلم فقط ما هي المودة والرحمة التي كانت مريم تفتقر لكليهما.

لا أعلم سببًا لبُعدها عني حتى الآن كان هذا في العام الثالث لي في الكلية،قالت إنها أحبت شابًّا آخر، زميلاً لها في الجامعة. ثم قالت إنني كنت غير موجود معها دائمًا كانت أسبابها واهية ومتغيرة، بكت في الرحيل وكأنما كان الرحيل رغما عنها، احتضنتها في آخر لقاء وفي هذه الضمة تركت لها جزءاً مني. انقص مني هذا الجزء شيئًا، وأضاف لها شيئًا.

ظننت بعد رحيلها، أني رحلت، وأن الدنيا قد انتهت. وها أنا هنا، لم أرحل،والدنيا قائمة بعدما تركتني، أقحمت نفسي في اللهو بكل أنواعه. في أيام الإجازات،استرجعت علاقتي بشاب كان زميلاً لي في الدراسة المدرسية يوزع المخدرات بكميات قليلة، فعملت معه ومن هذه النقود الحرام، كنت أشتري الحشيش كان الإعياء يصيبني من المومسات، برغم إلحاح الأصدقاء والوفرة في وجودهن فكنت أدخل في علاقات مختلفة، محرمة،

ومعظمها كانت مع هؤلاء الروسيات المنتشرات في الغردقة، فقد كنا كثيري التردد على الغردقة، لأن التجارة بها رائجة، والحياة بها جميلة. كنت أتمنى مريم وأشتهيها أكثر بعد إتمام كل علاقة، ودائمًا أود أن أعلم كيف يبدو ما خفي منها؟ كانت هي سبب علاقاتي هذه، ومن قبل كنت بكرًا لم ألمس أي امرأة إلا هي لمسات قليلات، بريئات ينتابهن بعض الشهوة التي لا تقود إلى المحرمات. ولكن بعدما علمت متعة الجنس، ورأيت ما تخفيه النساء تحت ثيابهن المحكمة، تمنيتها، ولكني ما رأيت ورأى غيري منها ما وددت أن أرى، لأنها تزوجت، واستيقظت من غفلتي بهذا الموقف اللعين الذي تعرضت إليه.

طلبت الكلية عينة بول مني، لأنهم شكوا في أمري، وأظن أن أحد الطلاب قد عرف شيئًا فقام بتبليغهم واضطررت أن آخذ عينة بول صديقي على أنها لي، كي لا أفصل من الكلية، وكان هذا الموقف عصيبًا، ومررت منه بأعجوبة، وحدث هذا تزامنا مع مرض أمي التي كنت أبخل عليها بوقتي، فقررت أن أرجع الى عقلي وأرمي إصابتي بمريم بعيدًا. نسيتها وما عادت تأتي على بالي إلا قليلاً، لكنها جزء من تكوين ما أنا عليه الآن. لم أظلمها قط وقد ظلمتني وباعتني بدون أي مقدمات ولا مبررات فقررت أنني سأنتظر هذه الفتاة التي ستجعلني أوقن من داخلي أنها أحسن من مريم بل أحسن مني أنا أيضًا، ولا أعلم إن كانت هذه الفتاة لها وجود أم أنها مجرد سراب.

من أين جئت؟ وكأن مركبة فضائية أسقطتني من سابع سما إلى هذه الأرض الغريبة. من هؤلاء البشر؟ لا أعرفهم! لا أعرف. لا أعرف حتى من يعيشون معي في المترل، مغترب أنا في بيتي. أبي هذا الذي يملؤه الحزن والكسرة التي لم أرَها قط، وأختي من تصورت أنها تمثل القوة، وكنت أظن أنها أكثر الناس كرهًا لأبي، الآن لا تتركه تذهب إلى العمل، وترجع لتجلس معه طوال الوقت.

تقدم لأختي أكثر من رجل بعد وفاة أمي منذ شهرين، لكنها رفضت أكثر شيء كانت تتمناه.

حادث الكنيسة، وإصابتي في قدمي خلاله،جاء لي كابتلاء لأظل جالسًا في المترل مع حزني.

حالة أبي اختلفت بعد وفاة أمي. أصبح منكسرًا وحزينًا، وما عاد يتعامل مع ساجدة أختي بغلظة. أما معاملته لي قد تحسنت من قبل وفاة أمي بمدة، لكني لم أصفُ إليه قط، والآن أشفقت عليه وكدت أحبه لكنه ما لبث هكذا حتى عاد كما كان، اختلفت معاملته معي، واختلفت معاملته لساجدة، فأصبحا الآن صديقين، وأصبحت أنا المنبوذ منه.

يجادلني في كل شيء، يكيل لي السباب أنا، وكل ضباط الشرطة. وكلما حدث أي عمل إرهابي يستهزئ بي وبالداخلية، ويقول ساخرًا "البسوا جيب!" " غيروا لبسكوا وخلوه بمبة!"

لا أنسب الكمال إلى نفسي، أنسب الكمال إلى أمي، التي أعطتني جزءاً من كمالها لأكون كما أنا. شابًّا محبًّا للحياة، مخلصاً في العمل، ومحبوباً لدى الجميع، إلا أبي. وأنسب الكمال أيضًا إلى أختي البائسة التي إذا قورن حزني على أمي بحزنها سنجد أنه لا شيء.

اليوم أسلمت نفسي للموسيقا، سيمفونية أنطوني هوبكيتر، أغمضت عيني، رأيتها بين أضلعي نرقص معًا وكل منا خفيف كالفراشة، وكأننا نطير مبتعدين بعض الشـــيء عن الأرض ولسنا بمحلقين، ولسنا كالناس التي تسير. رأيتنا نجوب راقصين كل أماكن العالم خضـــرة. فوق جبال لبنان كنا نرقص، وقرب البحر على جزر موريشيوس بمفردنا، كنا نرقص، على رمال طابا بين البحر والصخور كنا نرقص، وفي بلاد لا أعرف لها اسما ولا أعلم بوجودها كنا نرقص. وللفَلك انتقلنا حينما أعيدت السنفونية مرة اخرى. بدأنا حينها التحليق. رقصنا فوق الأرض مبتعدين عنها، وما علمنا أننا خرجنا منها،وبين الكواكب والنجوم دُرنا وكأننا كوكبا لا يعلم الناس عنه شيئا. رقصنا جانب الشمس وما احترقنا، وجانب الثقب الأسود وما ابتلعنا. اشتقت إليك، لماذا توفاكِ الله؟ أحقا توفاكِ الله؟ ماتت أمي ويا ليتها ما ماتت! وعاش أبي ويا ليته ما عاش! أنا الطير المحلق في السماء بلا قيود، بلا ذل، بلا انحناء. لا الأرض أرضي ولا المكان مكاني، لكني هنا وهناك والزمن كله زماني.

خامد أنا كبركان لا يُرى، وأظن أنني سأظل هكذا حتى أموت، أين أنت يا أمي؟ أين أنت يا مريم أحتاج إليك فقط كصديقة. لأنك كنت

تفهميني دائمًا من دون بذل مجهود. أين أنت يا أيتها الحبيبة المنتظرة؟ أنا سعيد لأنني قد نسيت مريم، أو أظن ذلك.

سأُلقي اليوم سلسلتها داخل البيت، فربما تقع في الطرقات أو تضيع. لكي أخلص نفسي من أي شيء يذكرني بها. فأنا أستحق عن جدارة أنثى بلا عيبٍ أو على الأقل أنثى تراعي الله في قلبي أنثى بها حنان أمي، ونظرة عين مريم، وبراءة أختي، وخوف أمي عليّ، وطلة مريم، وهدوء أختي المفاجئ على غير عادتها، وحب أمي وحب مريم الذي كان أو ظننت أنه كان وحب أختي.

كنت على حق حينما أحببت بكل كياني، فأنا غير نادم على حبي لمريم، ولكني نادم على أن هذا الحب كان لإنسانة لا تعرف شيئًا عن الحب. اللهم يا سلام، إني أبتغي سلامًا.

مُحب عامر خاطر

2015/2/12

***

الكاتب

لم تتحدث مريم عن هذا المُحَب، لم تذكره، لا بد أنه كان نزوة عابرة، لكني سألتها اليوم عما إذا أحبت قبل زوجها أم لا؟

فقالت إنها، لم تحب زوجها حبًّا صريحًا، لأنه بدا زوجًا مناسبًا لأي فتاة، وبينهما عشرة طيبة.

عن أي عشرة طيبة تتحدث وهو يضربها، ويسبها؟ هل هي حقًّا بهذا القدر من السلبية؟

ثم قالت إنها لم تحب حبًّا حقيقيًّا قط، وأنني أنا الوحيد الذي شعرت معه بأحاسيس الحب. بل إنها لم تشتهِ رجلاً من قبل إياي.

صدقتها، لكني تساءلت:

إذا كانت تحبني إلى هذه الدرجة، فما الذي يمنعها من الطلاق؟ ربما رهبة الطلاق؟ وخوفها على مصير ابنتها التي لا تستأمن عليها أحداً.

...

تحدّثت مع الشيخ يحيى اليوم عن الرقص، بعدما استمعنا معًا إلى المقطوعة التي ذكرها محب، فكانت رائعة، وبسبب الموسيقا أصيب يحيى بالسُّكر،فسألته عما إذا كان قد رقص رقصة المولوية من أقبل،فأومأ برأسه، وقال:

الرقص لغة عالمية، واستثنائية. لسان الرقص لا أعجمي، ولا عربي. لا يفقهه إلا ذو قلب سليم، يفر منه ويستنكره اللئيم لكل حركة معنى. ولا يقابل المعنى كلمة، بل يقابلها شعور، ويقابلها رمز موسيقي، أبلغ من كل الكلمات في الرقص حكايات، وهو حياة بدون ممات، الرقص سعادة، وكذلك عبادة، والموسيقا أماكن لن نذهب إليها، تأخذنا هي إليها فهي صوت الخيال غير المحدود.

– وهل قابلته في رقصك ودورانك يا شيخ؟

فأومأ أيضًا وأضاف:

– ولأنه غير محدود وغير مرتبط بمكان تلقاه في دورانك..

هم يحيى وكأنه يخاطب شيئًا غير موجود وقال:

– أنا فيك مُتيم وأنتَ فيّ تجري ومستقر.

– ولَيتَ وجهي نحوك أُناجيك، فهلا تستدر؟

– أحبك على كل دين وملة.

وأراك في كل قاطع وواصل ومنتظر.

- كيف يا شيخنا يستدر نحوك، أليس ناظرًا لنا على الدوام وأنت القائل إنه في كل آن معك؟

- الاستدارة إنارة وإشارة، والحركة دليل الوجود.

***

نوران

نحن نعيش بالاحتمالات التي ربما تتحقق، وكذلك نعيش في الماضي الذي قد أثر في حاضرنا.

الله معنا، نحن السكارى المساكين الساهرون المكتئبين الحالمين الذين يرفضون تحمل مسؤولية الواقع، لأننا لا نؤمن بالواقع، وإذا اندمجنا لحظات معه، سَخِرنا مما يفعله الآخرون المندمجون بشدة مع وهم الحياة الزائفة التي حتما ستنتهي. تطلبون منا المقاومة؟! فكيف تكون المقاومة؟ أنا منفصلة عن ذاتي ومتصلة بكل شيء من دوني.

أغلق عيني رغمًا عنها وعني، كل الأشياء تتآمر عليَّ، حتى دقات الساعة تمر متباطئة عن عمد حتى يتسنى لها أن تنال مني. كل ما كان يشغل بالي منذ قليل كيفية حصولي على مال لأشتري به دواء يسد من شهيتي ويحرق دهوني ودمي، أنا لا أريد فقدان الوزن لكن كل الأطباء اشترطوا عليَّ هذا لأن ظهري وساقي قد أعلنا معًا وفجأة استياءهما من وزني فقررا القيام بثورة من الآلام حتى أريحهما من هذا الحمل. فعمودي الفقري قدم

لي انزلاق غضـــروفيًا وأما ساقي، قد ساقت إليّ آلام الركب بسبب الخشونة، فضلاً عن وجع الأعصاب المنتشـــر في أنحاء جسمي كله، كل هذا وأنا ابنة الثامنة والعشـــرين.

ذهبت لأمي منذ برهة فقلت لها أنه يجب أشتري هذا الدواء، فتعجبت كأنها لم تكن معي اليوم عند الطبيب، الذي أكد بشدة أن الوجع سيهدأ حينما يقل وزني، وقال ما نصه: "اعملوا أي حاجة بس لازم تخســـي!" وهي تعلم أن كل الأشياء الأخرى مثل العمليات لا نتحمل تكلفتها، فردت عليّ وقالت إنها لا تملك المال وأنها ستتكلم مع أبي فدخلت الغرفة ورجعت، وجاء هو ليوبخني ويدق في كل أنحاء جسدي مسامير من الكلام الموجع أكثر من آلام الأعصاب. ثم خرج من الغرفة مثل الثور الهائج.

حتى دورتي الشهرية ليست شهرية، تأتي فجأة وتغيب لأشهر ويزيد غيابها من آلام العظام، وحين تأتي، تجلب معها وجع في بطني وظهري لا يُحتَمل.

لم يكن لي صلة بأبي حتى تقاعد عن العمل، فأصبح على قلبي ثقيلاً لا يحتمل، يختلق معي أي شجار، ثم يلومني على عدم مجالستي له. بعدما تقاعد بيومين حدث ذلك الشجار الكبير، وكان سببًا في تعكير كل ما في قلبي له. كنت مريضة كالعادة،وازداد مرضي حينها فتقيأت، فسأل أمي في شك كعادته "مالها دي بترجع كدا ليه؟" فسقطت عليّ كلماته موجعة.

لا تربطني علاقة بالجنس الآخر إلا في إطار الصداقة، كمحب ورامز صديقي وصديق أخي الخلوق الذي توفي في حادث الكنيسة. أحببت عدة

مرّات، ولكن ما نفعني الحب في شيء. ربما صدمتي في من أحببت كانت سبب تيبس قلبي كما تيبست عضلاتي، وما القلب إلا عضلة نشطة.

لا أرى في الوجود مشكلات، ولا أشغل بالي بالصراعات، فيكفي هذا الصـــراع الذي أحيا فيه؛ أم حنون بدون منفعة، فحتى حنانها لا يظهر إلا قليلًا. أعلم حبها لي لكني لا أراه، كَرَبٍّ في السماء يُعبَد بدون رؤية، وأخ مجهول الهوية لا أفهم أحواله أبدًا، وأخ آخر يظن أبي وأمي أنه قد تنصَّر. فأما أبي فهو دائم الشجار معي، لا يعطني مالًا إلا قليل، وكل ماله للذكور برغم عملهما.

لي صديقان، هما الأهم في حياتي؛ أماني ومحب. وكلاهما بائس وأتمنى أن يتزوج ببعضهما البعض. ربما سعادتهما تمنحني بعض السعادة التي لم أعرف لها طعمًا قط.

نوران كامل المنيري

2015/4/30

***

يونس

في عالم الذّرّ كان هناك شياطين، وملائكة، وما لا نعلم، وأنا. ربما كنت مزيجًا بينهما أو مما لا نعلم. لا أتذكر تكويني وخلقي، لكني أتذكر كل شيء آخر فحينما عَرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، أردت حملها أنا أيضًا، فأنا الممسك بكل أمانات الله والمحب الذي لا يحب سواه. فطلبت من الله أن يكلفني بحملها، وأن تكون أمانتي التي هي حياتي شديدة الصعوبة حتى يتسنى لي إثبات حبي له، فكان لي ما تمنيت، ربما أنا الإنسان، وإن لم أكن فأنا ظلوم جهول مثله.

احتجبت عني هذه الحقيقة زمنًا طويلاً،كان مليئًا بالصراعات النفسية الكثيرة، لا أنوي سرد قصة حياتي ولكن مقتطفات منها تكفي لأزيح الحمل عن عاتقي وأحاول جاهدًا بعدها ألا أبوح لأحد عما جرى في عالم الذر، حتى يظنون أني شفيت من البارانويا التي قرنوني بها بعد زيارة الدكتور النفسي لنا وتشخيصه لحالتي. وهذا الدكتور الشاب هو صديق لابن عمي، جاء معه خصيصاً من مستشفى الخانكة كي يراني، وكأني أدعي أني المسيح أو أن العرب أمة واحدة، أو أنني سأحرر القدس.

كتب لي أدوية تذهب العقل كنت أواظب على الدواء ليومين ولا أطيق أن أستمر عليه، فالدواء يجعلني أسرح في اللاشيء، لا أقدر على التفكير ويصيبني برود متناهٍ يعزلني عن كل شيء حولي، فالأدوية تجعل مني متفرجًا على حياتي الخاصة،بدون الشعور بها والانفعال معها،كمثل الإنسان إذا أطال تحريك يده وهو ينظر لها في المرآة ولا يراها في الحقيقة، فيقل إحساسه بيده لأنه يحرك يده وينظر إلى حركتها من خلال المرآة، ظنا منه أن ما يراه هو الحقيقة، وهي ليست الحقيقة، بل هي صورة منها فقط.

وفي أحيانٍ كثيرة، أطيل التفكير في الانتحار، وكيفية تنفيذ ذلك بطريقة تجعلهم يشعرون أن أمر الله قد نفذ بدون أي تدخل مني، فما الداعي من وجودي؟ هذا ما أشعر به حينما آخذ الدواء، حتى وإن كنت مريضًا نفسيًّا حقًّا، العلاج النفسي في بلادنا إما أن يكون بمئات الجنيهات التي يستحرم المصريين دفعها وكأنه شيء ترفيهي، أو يكون في المستشفيات العامة، والعيادات الرخيصة بصرف عقاقير للمريض تخمد المرض والمريض معًا، فتزيد الطين بلة.

تركتني أمي وأنا في الرابعة من عمري مع أبي، وسافرت إلى الخليج وتزوجت وأنجبت هناك، ولم أرها قط حتى بلغت السابعة عشر من عمري. فأصبحت أراها مرة أو مرتين كل عام حينما تأتي إلى مصر.

تزوج أبي وأنا في الثامنة من عمري، كانت زوجته في غيابه تسمح لي بأن أتحسس جسدها العاري كأنني مدلك خصوصي لها، وما كنت أعي شيئًا ولا أهتاج لكني أحببت فعل هذا على سبيل الاستكشاف فوجدت فيه متعة.

ماتت تلك المرأة في هدوء، ولم يعلم أحد ما كان بيننا، وبعد وفاتها، أصبح أبي زير نساءٍ لا يترك موبقةً إلا ارتكبها. ثم بدأت نوبات الصرع تلاحقه، فتدين تدينًا شديدًا، فصار متشددًا كارهًا للناس. وتبدلت أحواله كثيرًا حتى مات في سلام منذ ستة أشهر. أتت أمي إلى البلدة قبل وفاة أبي بنحو العام. والعجيب، أن معاملتهم لبعضهم البعض كانت راقية جدًّا، وكان يزورها كثيرًا. الآن، اضطرت للعيش وحيدة في دارٍ للمسنين هنا في الخانكة، كما اختارت هي بعد أن مات زوجها، ومات أحد أبنائها، والآخر أخذ بيتها.

ولِمَ كان كل هذا من البداية؟

دائمًا ما كنت أسأل أبي هذا السؤال عن زواجه بأمي، لماذا اختارها هي بالذات؟

إذا كان يكرها كل هذا الكره ويذم في كل طباعها وتربيتها،وأهلها قبل أن ترجع إلى هنا مكسورة؟

فيرد قائلاً:

- كنت هجيبك إزاي؟

وليته ما فعل!

لم أعاتبها على تخليها عني وأنا في أشد الحاجة إليها، فيكفي ما حدث لها، فقد عاقبها الله بأكثر مما تمنيت. تناسيت كل ما كان منها، وأصبحت معها أطمأن، عرفت أن للأم رائحة كما يقولون، ورائحتها هذه كأنها نوع آخر من الأكسيجين، يزيد الحياة حياة، وأن ضمتها تحيي القلوب كما

يصفون، وكأنها ربتني وكأنها ما تركتني قط، ويا ليتها لم تتركني قط! يا ليتني تمتعت بكل هذا منذ الصغر، أحبها، وهي تظن أني لا أحبها.

في خضِم كل هذه الأحداث أنا الآن في عامي الأربعين ولم أتزوج، ولا يمكنني ممارسة الجنس إلا بصعوبة بالغة، فلم أرَ في الجنس أي متعة إلا مع امرأة أحبها.

لا يصح وصف العلاقات الجنسية جميعها بالعشق، حتى وإن كان يخضع إلى مطالب الجسد، فقد عددناه ارتقاء، لأن العشق التزام بالعاشق، ومن أسباب ارتقائه أن الحبيب يَغني المحب، والعاشق يغني معشوقه عن النظر إلى سواه، حتى وإن كان الأصل في الإنسان التعدد، فالأصل في العشق الإخلاص، وتمام الخلاص.

فلا تقل إني عاشق إلا إذا أغناك معشوقك عن سواه

ولا تقل إني محب إلا إذا كنت لا تبتغي غير محبوبك

ولا تقل إني هائم إلا إذا سُلِبت منك الإرادة كما الهائم

ولا تقل إني مغرم، إلا إذا كنت معذَّب بعذوبة الحبيب الذي لا يراك.

***

تخرجت في كلية الزراعة والآن أُشرف على أرض صغيرة تركها لي أبي. فأما الحب، فقد قابلته عدة مرات ولم يقابلني. فأما العشق، فقد عشقت امرأة متزوجة، وأصغر مني، احتالت عليّ كما يحتال الرجل على المرأة ليفرغ فيها طاقته الجنسية، وأقنعتني بحبها لي ثم رمتني حينما احتدم عشقي وكأنها عن عمد طعنتني.

أنا موقن بما حدث في عالم الذر، كيف يتكوّن في ذاكرتي أشياء وأتذكر كل التفاصيل، ويقولون لي إنها لم تحدث. أنا أتذكر حتى شعوري في حضـــرته. ويقشعر بدني حينما أتذكر أنه ليس بشعور نعرفه ونمتلكه الآن كي أصفه، لكني متأكد منه، ويمتلكني ذعر عظيم، فأنا خائف من أن يعاقبني الله بألا أراه اذا لم أهتد، أو يختم على قلبي بالكفر فأموت وأنا بعيد عنه.

جرت العادة أن نقول "كل إنسان بداخله مرض نفسي ربما لا يعلمه ولن يعلمه قط، أو ربما لا يريد الاعتراف به." المرض النفسي هو الأساس، هو التجلي الذي اختصك الله به، المرتقون هم المرضى النفسيين، ومعظم المرضى اعتقدوا أشياء في أغلب الأحوال لم نفهمها، فقد ادعى بعض مرضى الصـــرع ان نور ما يتجلى عليهم قبل نوبات الصرع، وبعضهم ادعى ظهور ملائكة، كان أبي مريضًا بالصرع وقد ادعى، وأنا أصدق ادعاءه، إنه بعد نوبة الصرع التي جاءت له عدة مرات معدودات خلال حياته كان يرى النار والجنة ويوم القيامة. بل إنه قبل وفاته بدقائق قال إنه رأى الله.

وكان يحكي لي صديقي أن أحد أقاربه كان يعاني مرضًا عجيبًا، يرى فيه الأشياء على عكس أحجامها التي يراها الناس بسبب مشكلات في الإدراك. ربما لا يوجد أحجام طبيعية من الأساس وما إدراكنا الا خَدّاع لنا. ربما نحن مجرد سراب أو نجمة انفجرت منذ ملايين السنين وما زال بريقها لامعًا نراه في السماء.

يونس أحمد النجار

2015/5/15

الكاتب

سألت يحيى إن كان يعلم المرأة المتزوجة التي ذكرها يونس، لكنه قال: لا أعلم، وإن كنت، فمن ستره الله لا يفضحه العبد.

...

الاندماج في الواقع يطيح بالرأس، أحتاج إلى الهدوء. صرت أحلم بأهل هذا الحي يوميًّا، بالإضافة إلى هذا الفأر الذي أصبح لا يفارقني في نومي، بل أحيانًا أتخيله في يقظتي.

ربما بُعد مريم عني لأيام هو الذي أثر في نفسيتي، زوجها مستقر في المنزل، فلا يمكنني رؤيتها، ولا حتى الاستماع إلى صوتها. بعض الرسائل التي لا بد أن تبدأها هي، أصبحت هي الشيء الوحيد الذي يصلني بها، لكنها تصبرني وتقول إن هذا الحال لن يبقى لوقت طويل.

ما هذا الهزل الذي يحدث في الخانكة؟ هذا المبنى هو كعبتهم التي يطوفون حولها، يلقون بداخله حكاياتهم وآمالهم كما يلقي الحاج دعاءه،

السؤال بداخل البيت والاجابة بداخله، كلاهما مجاور للآخر، لكنهم لا يريدون إجابة. ربما لأن الإجابات تصدم أحيانًا، فأما السؤال فهو سهل مثل الدعاء. الكتابة أمل فأما القراءة فهي تحقيق الأمل.

نباح الكلاب في الليل يذهب الكرى، ويقطع حبل الفكر إن كنت مستيقظًا، أما إن كنت معربدًا تلهو ليلًا فلن تسمع لها صوتًا، أحتاج إلى النوم بشدة، لكني أصبحت أخشاه، لأنني أخاف من الفأر.

محمد

حمادة لادا

***

لا أشعر بأمان مع البشر، ومع كثرتهم حولي أخاف، أخاف أن اخســـرهم، أخاف أن يدركوا جهلي وشخصيتي الهشة برغم إجادتي التحدث بلباقة وإعطاء النصائح.

أنا أعلم أني متميز ولا أجد عيبًا في هذا أو غرورًا، وإذا أنكر موهوب أنه موهوب خشية أن يظنه الناس مغرور وادعى التواضع فهو كاذب، لكن هناك مشكلة دائمة في التعامل مع كل الموهوبين في جميع المجالات.

جميعنا أنذال. جميعنا نتحدث أحيانًا بأعضاء جسدنا، شهواتنا تقودنا أحيانًا إلى اللذة التي لا تدوم ثم نرد حالنا إلى الهالة التي نبتغي الظهور بداخلها،لأننا نظن أن أي موهوب لا بد أن يكون داخل الهالة ويظن العامة فينا كذلك، والحقيقة أن جميع البشر متساوون في أنهم حفنة من الطين

الذي يريد الماء لكي يبقى حيًا، ومطالب الجسد هي التي تبقينا على قيد الحياة، والفنان والعالم والمبدع جميعهم من طين أيضًا، والعامة يظلمونهم حينما يظنون أنهم غير ذلك، فيضطرون إلى ادعاء الفضيلة ليسمعهم الناس،كلنا بشر فحتى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كان يحب النساء ويشتهيهم.

أنا متميز، وذكي، وناجح، وابن بار بين أخ ملحد، وأخت مريضة وسمينة ولا تحاول فعل شيء في هذا الأمر، وكلاهما يعامل أبي معاملة سيئة. وإضافة إلى عملي كفني ميكانيكا سيارات، أنا مصور محترف، أرى مواطن الجمال المستترة.

قديمًا قال لنا الشيخ يحيى رأيًا لصوفي كبير أنَ "بسم الله الرحمن الرحيم" التي نستفتح بها القرآن وحديثنا وأعمالنا، توازي "كن" التي يقولها الله وكان يقول إن الإنسان قادر على اكتساب أي شيء بقدرته في التحكم بعقله الباطن والتحكم في أفكاره وقناعته بأنه سيد أفكاره والمسيطر الأول عليها. لكني اكتشفت أن كل هذا هراء، لا يطعم ولا يغني من جوع، على الأقل بالنسبة لي فالسعي عندي هو السر، والاجتهاد هو السحر والعزيمة هي القوة فإن اجتمع الثلاثة تحقق النجاح.

اليوم كان افتتاح (حمادة لادا)، معرض سيارات هنا في الحي، معرضي أنا، قررت تسميته بهذا الاسم الذي أُطلِقَ عليَّ ظلمًا وبهتانًا، عندما سُرِقت السيارة اللادا التي يمتلكها الحاج ربيع، الحلاق، فاتهمني فيها أهل المنطقة لأنني كنت واقفًا أمام مكان سرقتها، والذي أثبت لهم أنني أنا الفاعل، هو

أنهم بعد تفتيشـــي تفتيشًا مهينًا، وجدوا معي سيجارة حشيش بداخل علبة السجائر ووجدوا في شرابي، قرصين من الأقراص التي يطلق عليها (كيميا). فأبرحوني ضربًا حتى سال الدم من أنفي من كثرة اللكمات، ثم جاء من بين الزحام ياسين عزيز يحمل شومة فنزل بها على رأسي، حتى وقعت مغشيًا عليّ. ضربته القاضية هي التي أنقذتني من وجع اللكمات والركل في أكثر أماكن الرجل خصوصية، فمكثت في المستشفى لثلاثة أيام، ما زارني أحد إلا أهلي. ولم يصدق كل من أمي وأختي وأخي أني لم أسرق شيئًا، لكن أبي صدقني.

اشتهر اسمي بعدها بحرامي اللادا ثم نسي أهل المنطقة كلمة حرامي، فتحول اسمي إلى حمادة لادا. والآن، بعض من الذين ينادونني بهذا الاسم لا يعلمون من أين أتى، وحينما يسألني أحد أرد بأنني كنت متمكنًا من تصليح سيارات اللادا.

توقفت عن الدراسة بعد هذا الحادث، لكني استجمعت قواي وعدت إلى الدراسة مرة أخرى. عملت بجهد مائة رجل، أقلعت عن كل شيءٍ حتى السجائر، وبدأت في العمل ميكانيكيًا في أثناء دراستي، أفادني في هذا كنيتي التي اكتسبتها ظلمًا، ومهارتي التي أثبتها في تصليح كل السيارات.

تعلمت كل شيء عن السيارات قبل إتمام دراسة التجارة من أول الهيكل إلى دوائرِ الكهرباء ومحرك السيارة ومكوناته.

سافرت بعد الجامعة إلى دولة عربية لفترة وجيزة، وبعد سنوات أصبحت نقيض ما كنت، تغير المظلوم الذي لا يحترمه أحد، حتى صار تاجرًا يشتري السيارات المسروقة ويبيعها كقطع غيار. يحترمني الجميع لمالي الذي يغض الأبصار عن الفجار ويتلاعب بالأقدار، وأولهم أمي وأختي وأخي. اليوم يقفون معي في افتتاح معرضي، وشباب الحي الذي طالما احتقروني، حتى ياسين عزيز الذي ضربني ونحن صغار، يفتخرون بي جميعًا، وكأني صديقهم ولم أكن يومًا صديقهم، وأنا وسط الأضواء المعلقة والازدحام تظاهرت بأن معدتي تؤلمني ودخلت دورة المياه وبكيت. لا أعلم سببًا لبكائي، أهي دموع الظفر حين رددت اعتباري؟ أم هي دموع الضمير الذي يعي أني مجرد نسخة جديدة من مظلوم مذموم تحول إلى ظالم؟

أمامي امرأة جميلة تكتب هي الأخرى، تبدو لي عانسًا تعيسة لكنها جميلة. أظن أنها ليست من أهل الحي، وقد رأيتها خارجة بصحبة يونس من دار المسنين، لا بد أنها كانت تزور ناهد والدة يونس، هي صديقتي وسأسألها عنها فربما تصلح زوجة. ترفع عني نظرات الناس الذين يتساءلون في حيرة: ما الذي يمنعه من الزواج، لديَّ ميول للرجال، لكنني لم أفعل أي شيء، لا مع رجال ولا مع نساء.

محمد كامل المنيري

2015/5/24

***

الكاتب

الميول الجنسية للرجال..

لقد رأيت محمدًا، حينما تعطلت سيارتي، في أوائل أيامي في الحي، وشعرت بميوله الجنسية هذه حينها برغم أنه بدا منمقًا، وقد عرفت حينها بدون أن يقول إنه صاحب معرض العربيات ومحل الميكانيكي المتجاورين، وليس مجرد عامل، برغم كشفه على السيارة بنفسه.

أأشتم رائحتهم، حتى وإن كان نظيفًا ولم يفعل ما يرضي جسده حتى الآن؟

قلت هذا الكلام بصوت مسموع أمام يحيى، فنظر إليَّ باحتقار وقال:

أولاً، كيف لك أن تعرفهم بهذا الشكل؟ أكنت واحدًا منهم يومًا ما؟

لاحظ غضبي وتوتري، فضحك كأنها كانت مزحة، ثم أضاف.

المهم أنه قدر على المقاومة، وكثيرون لا يقدرون.

***

عبير

المارة

أنا تلك المرأة التي تنتظر الحبيب مهما يكلف الأمر من تعب الانتظار الطويل، أو من الآم الوحدة والمرار، أو من خوف يقبض على صدري ما منه فرار. أشتاق إلى الحبيب دومًا وحتى إن كان الحبيب خان والحب عليه قد هان، أحببت آخرين أو خيل إليّ أنني أحببت لوهلات. فتبدأ الحكاية بالفرح والسرور، وأظن أني قد تخطيت من حطم قلبي ورميت كل ما كان إلا أن في كل مرة تنتهي قصة من قصص الحب الواهمة هذه أبكي بكاء لا يقابله بكاء على حبي الأول أو الوحيد (جمال) الذي كان. فأحيانًا، يكون الوهم حيلة نستخدمها ضد أنفسنا كي لا نواجه أوجاعنا.

قد اعتزمت على الذهاب إليه أينما كان وحثه على الرجوع والتوسل إليه حتى يرضى ويرضخ لي.ولطالما اعتزمت فعل هذا طوال هذه السنوات، إلا أنني في كل مرة أقرر كنت أعرف شيئًا جديدًا عنه، فتارة خطب ففسخ

فاعتزمت،فتزوج فطلق فاعتزمت،فسافر واستمر سفره خمس سنوات فرجع أخيرًا، فكان قراري الذهاب، إلا أنني تلقيت خبر رحيله عن الدنيا.

الغريب أنني لم أنهَر هذا الانهيار الذي توقعه الكل، بكيت بالطبع كثيرًا، وما الفارق لقد بكيت دومًا وكثيرًا، ولكن بكائي الآن فيه شيء من الراحة. لقد رحل عن الوجود تمامًا حتى تيقنت أن الوصال أصبح محالًا، وأنني مكتوفة الأيدي لا يمكنني فعل شيء أو انتظاره ليفعل شيء، لكنني سأظل أنبش عن أمل، ومن منا لا يفعل؟

ربما أراه يومًا في حلم، أو أستأنس بروحه في داخلي، أو ربما ألقاه في يوم اللقاء.

اليوم أزور أمه لكي أشتم رائحته فيها، يا الله، يا رب هذا البيت المبروك، إما أن تنزع حبه من قلبي، أو تجعله يزورني في المنام..

عبير ناصر

2015/5/24

***

ناهد

حينما كنت أعيش مع أهلي في سن المراهقة، لم أتخيل قط أن ينتهي بي الحال هنا في دار للمسنين، لماذا يقتصر استخدام كلمة دار على دار الأيتام ودار المسنين؟

كنت طفلة مشاغبة جدًّا، كثيرة الحركة وطويلة اللسان، على عكس حال البنات في تلك الأيام.

أحببت ابن خالي حبًّا لم يدركه أحد، حتى هو، وفي يوم من الأيام التي خلت منذ أمد بعيد، كنت ألعب مع الأطفال من الأقارب والجيران فوق سطح المنزل، فانزلقت قدمي إلى الأمام فاستويت على حجر ضخم مدبب، فجُرِح فخذي ونزفت، ذهبت إلى أمي باكية، فصرخت ظنًّا منها أنني فقدت عذريتي، فحاولت أن أوضح لها ما جرى لكنها هرولت خارج المنزل لتستدعي خالتي هنية الداية كي تكشف عليّ.

دخلت عليَّ هنية المفترية في غرفتي كخبر الموت، وكنت قد ضمدت جرحي وانتهى الأمر،فحاولت الشرح مرة أخرى لكن من دون جدوى، فاقتربت مني كالوحش وباعدت بين ساقي وأزاحت ملابسي الداخلية على جنب، وبدأت بإمعان النظر مع استخدام يدها لمساعدتها في الكشف، فحينما انتهت وقالت:

- زي الفُل.

نهضت من الفراش وبصقت على وجهها وتركتهما، ومن يومها انتهت علاقتي بأمي، حتى في زفافي إلى رجل غير الذي أحببته لم نتحدّث، وباعدتها عن عمد حينما جاءت لاحتضاني.

حاولت ألا أنادي زوجي ليومين، لأنني بكل بساطة نسيت اسمه، أهو أحمد أم محمد، قد تقدم لخطبتي من قبله اثنان أحمد وواحد محمد فاختلط عليَّ الأمر، بالإضافة إلى أن "عقلي مش فيا" كما كانت أمي تقول دائمًا. وكيف لا أنساه؟ فأنا لم أرَ له شكلاً إلا من وراء ستارة غرفة المسافرين قبل الزواج، والمرة الثانية فوقي يلهث كالكلب أو أضل سبيلاً ليلة الدخلة. لماذا نقول ليلة الدخلة ولا نقول ليلة الزفاف أو الفرح؟

بقيت مع أحمد عددًا من السنين وأنجبت منه يونس، أحببت يونس فتحملت أباه، لكنه لم يتحملني يومًا، وازداد الشجار بيننا حتى أيقنت أن الحياة معه مستحيلة. وكان الأكثر استفزازًا من بين جميع البشر، فأسباب مشاداتنا كانت دائمًا هينة، لكنه كان يصمت حينما أتكلم، فأظل أتحدث إليه، فلا يلتفت إليّ، أظل أناديه فلا يجيب، وأحيانًا يضحك بسبب شيء ما

في أثناء غضبي، فأثور فيخرج من فمي كلام يهينه، سواء عن علاقتنا الجنسية التي لم أتمتع بها قط، أو عن بخل مشاعره، أو حتى إذلاله بأنني لم أطلب منه شيئًا قط.

ماتت أمي في عام ابني الخامس وسبقها أبي بعامين، فشجعني هذا على طلب الطلاق.

وتركته، وابني وسافرت إلى دولة الكويت وزورت في أوراقي وجعلت من نفســـي بنتًا لم تتزوج قط حتى آخذ وظيفة المبيعات التي صادفتها في إحدى الجرائد وكان شرط الحصول عليها بكارتي.

قابلت رجلاً طيبًا هناك وصارحته بزواجي الأول،وكان قد قضـــى في الغربة ما جعله أهلاً لعيش حياة كريمة في مصر. لكننا تزوجنا هناك، وأنجبنا ثلاثة أطفال، ولدان وبنت، كان أوسطهم جمال الذي كان يذكرني بيونس. أبيض الوجه ناعم الشعر، نسخة مذكرة مني.

كنت أحتضنه أكثر من أخويه لأن حضنه كان مضاعفًا، فكان حضنًا له وحضنًا كأنه ليونس الذي تخليت عنه بإرادتي، فغار أخوا جمال من جمال كما غار إخوة يوسف، وكنت أنا السبب كما كان يعقوب.

وانشق قلبي حينما قرر جمال السفر إلى مصر والاستقرار بها، فحرمني إياه كما حُرِمتُ يونس. لكنه رجع مرة أخرى في آخر خمس سنوات حينما مل الحياة في مصر.

رأيت يونس في سن مراهقته، لكني لم أشبع منه قط. فكنت أراه في الإجازات في مصر مرة أو مرتين، لأننا كنا في الإجازات نستقر في القاهرة ولا نزور القليوبية إلا أياماً قليلة.

مات زوجي الثاني بعدما أتم دوره كأب بكل إخلاص..

انتقلنا إلى مصر، واستقررنا مع ابنتي التي تزوجت من رجل أعمال، وقررت أن أبني بيتًا في مدينة من المدن الجديدة، بما اكتسبته من عملي ومما ورثته عن زوجي، وبعد ستة أشهر أوشك البيت على الاكتمال، فحلمت فيه بتجميع كل أولادي حولي بما فيهم يونس،وسريعًا وبدون أي مقدمات، مات جمال في حادث سيارة مع صديقه الذي عاش برغم من أن حالته كانت أسوأ من جمال،لكنه قدري الذي أراد شق صدري، قدري الذي قرر معاقبتي، قدري الذي أكرهه.

بعد سنة من وفاة جمال جاء لي أخوه وأخته وطلبا مني أن أمضي على توكيل عام لكي يتمكنا من التقديم على الخدمات للبيت الذي بنيته، ولكيلا أجهد في ازدحام المصالح الحكومية، واجراءاتها الروتينية، وقد كنت أشعر حينها أنني أصبحت ثقيلة على ابنتي وزوجها، فقمت بالإمضاء على التوكيل الذي أدى إلى سلبي كل ما أملك.

الغريب أن ابني هذا ينكر عنه خطأه، فيقول بكل بجاحة:

- إنتِ اللي عملتي كدا يا ماما، ولا أنا، ولا أختي كنا عايزين نترل مصر، ولا أنا ولا هي كنا عايزين بيت في المكان دا، على الأقل هي

اتجوزت أما أنا،فهاخد الفلوس الي طلعت من بيع البيت وهرجع الكويت أعمل مشروع، وأما ربنا يكرم هبقى أجبلك بيت تاني.

– بيت ثاني؟

أتذكر كل طوبة بنيتها في هذا البيت المسلوب، وحتى أسماء العمال، كنت أتوقع بيعه بعد موتي وامتلاك غيري له فينقلع قلبي من مكانه، وها أنا أراه مسلوبًا في حياتي.

أشفقت عليّ ابنتي فقالت ما نصه:

– أنا مش عارفة يا ماما هو عمل كدا إزاي بعد ما شاف إنتِ أد إيه تعبتي في البيت دا. أنا عارفة إنك مش مرتاحة معاية، وعارفة إنك عايزه يونس عشان بيفكرك بجمال زي ما كان جمال بيفكرك بيه، وأنا جوزي بيسافر كتير، فإيه رأيك تروحي الخانكة أما يبقى جوزي هنا، وأما يسافر تيجي؟

– هروح الخانكة أقعد فين يا بنتي؟

– في دار مسنين هناك يا أمي قريبة من بيت يونس..

من هذه التي تتكلم؟ ومن هذا النصاب الذي أخذ مالي؟ أين أنت يا جمال؟

ها أنا في دار للمسنين، وأحن الناس علي هم يونس وأبوه قبل موته.

عرض عليّ يونس أن أنتقل معه إلى بيت أبيه بعدما مات، لكنني أبيت، لن أعود مكسورة إلى هذا البيت.

جاءتني من شهر تقريبًا زيارة في الدار، لم يكن يونس، كانت عبير، صديقة جمال التي أحبته. جاءت خصيصاً من القاهرة، لتراني. ثم جاء بعدها محمد ابن عم يونس ليسأل عنها، يقول الناس عنه إنه لا يشتهي النساء، فلمَ يسأل عنها؟ لقد أعطيته رقمها على كل حال. يا الله، اهدِ أولادي وسامحهم.

ناهد ممدوح

2015/6/29

***

عزيز

(ظلي الممدود)

اقتراني بالحياة وبها أصبح صعبًا، ربما أصعب من تحمل هذا الوجع الذي ينغز في كل مناطق جسدي بسبب هذا المرض المكروه الذي يستعيذ البشر بالله منه، ويستنكرون حتى التلفظ باسمه.

بدأ مرضي بعدة أعراض، وظهرت كل هذا الأعراض وأنا وحدي في المنزل الفارغ من كل الموجودات الحية، كنت أشعر بضيق نفس حاد وارتفاع درجة الحرارة عرفت فيما بعد أنه بسبب تكاثر الخلايا السرطانية. بدأت في فقدان الوزن وهذا بسبب فقر الدم، وآلام في المفاصل والعظام بسبب تسلل الخلايا السرطانية للسمحاق الذي يحتوي على الأوعية الدموية وأعصاب العظام، ثم تآكل العظم.

الألم الجسدي يجعلك أحيانًا تتناسى الألم النفسي والعكس أيضًا صحيح. تختلف الحالة باختلاف قوة الألم، أي أيهما أقوى من الآخر.

وأنا الآن أشعر بكليهما معًا. فألمي الجسدي اتضح سببه وهو سرطان الدم الليمفاوي الحاد. فأما الوجع النفسي، فهو ناتج عن ترك ابنتي وابني.

وفي مثل هذه الحالة الصحية التي تأكل ما تبقى مني، لم يقف بجانبي أحد إلا زوجتي التي كلما أراها تستميت في خدمتي، أحتقر نفسي أكثر بكثير، لا أحد يشعر بما أشعر به ولا أظن أن أحدًا قد شعر يومًا بكل هذا التحقير لنفسه وإرسالها إلى العدم.

اللاشيء، حيث لا يوجد أهمية أو فائدة أو أي سبب للوجود هذا بالضبط ما يطلق عليه الإحساس بالدونية. ولكن بشكل مبالغ فيه فحياتي بلا أمل والحياة بلا أمل صعبة، وربما مستحيلة.

أقضـــي كل أوقاتي التي تتبقى بعد الآلام والعلاج في بيتي البعيد عن الزحام، أجلس متأملًا من الشرفة التي تطل على حديقة واسعة مكتظة بالأشجار، أتأمل ...

في الشجر آيات واحتمالات وفيه حياة ونجاة وحيرة وسكن وظل ممدود وفاكهة كثيرة وتساؤلات كبيرة. مثلها تمامًا.

آيتي الكبرى، والشجرة المعطاءة التي تثمر هي زوجتي، أم الأطفال، بل هي أعلى من الشجر، فالشجر يلزمه مراعاة واهتمام ليثمر، أما هي، فمثمرة من دون أن يراعيها أحد، ربما لنقاء روحها، وإخلاصها الدائم.

قد داومت على ظلم هذه المرأة التي تخدمني اليوم فكان ردها على كل هذا الظلم تقديم المساندة لي، هذه المرأة هي ظلي الممدود.

طوال حياتي اعتقدت أن المرأة كائن ناقص، خلقت فقط للمتعة وخدمتنا نحن الرجال. فكنت أرى أنني أمتلك جارية، تخدمني وتربي أبنائي، وأخونها كثيرًا. ثم إنني تزوجت عليها صغيرة حسناء فعرفت فسامحت بعدما طلقت هذه الحسناء فأعدت الكرة مرتين فلم تسامح فبدأت بنقدها وإهانتها، وفارقتها. عشت وحيدًا في الحياة طولاً بعرض، ولم أرسل لها ولا لأولادنا جنيهًا واحدًا. ثم حدث مرضي هذا فبلغتها. فجاءت منكبة على وجهها لتخدمني وحدها، حين رفض أبنائي رؤيتي بعد ما فعلته وما لم أفعله معهم. لم تنطق زوجتي منذ هذا الحين بكلمة عتاب واحدة،ويا ليتها فعلت! وحتى أنا لا أقدر على النطق ولا أقدر على الاعتذار، وأي اعتذار يكفي؟

يا ويلي!

حينما رأيت كرمها عليَّ، علمت أن الأنثى ليست بنقص، ولا عيب، ولا داء. ومن ظن غير ذلك في غيب وابتلاء. فهي كمال الرجل واكتماله. أحيانًا أتبجح على ربي ولا أطيق مرضي وأظل أبكي أمام الشجر وأشعر انني ضحية. ضحية مجتمع وأسرة ربتني على أني ذكر حر لأفعل ما يحلو لي، وأننا غير مخيرين. ثم أشعر بهذا الاحتقار فأدرك حقيقتي المرة وأنني أنا من رسم كل خطوات حياتي..فالإنسان هو الذي يعيش الحياة واهمًا أنه الضحية ثم يواجه نفسه ويكتشف أنه الجاني. وما بين الجاني والمجني عليه، إنسان بلا حقيقة واضحة. وأختم بحمد ربي على ابتلائي الذي أنقذني من هذا الغيب المظلم الذي عشت فيه، وليوفقني الله في لقائي اليوم بابنتي وابني، أو يوافقون فقط على رؤيتي.

عزيز عبد الدائم

2015/8/3

زين

ظلمات

رأيت اليوم مقطعًا مصوّرًا لطفلة وُلدت بقلب وجزء من الأمعاء خارج الجسد، وتمكن الأطباء من معالجتها بإجراء عدة عمليات رأيت تعليقات الناس تحت المقطع كلها تثني على الله وتقول سبحان الله، فتعجبت، فأين المعجزة؟ فإن كان الله قد خلقها كذلك فالعلم هو الذي أصلح خطأ الرب، كيف تمكنوا من رؤية الله في تلك المأساة؟ أنا لم أرَ إلا خطأ بيولوجيًا أو شذوذًا جينيًا أدى إلى تشوُّه فتمت معالجته بالطب.

"فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" اعتاد بعض الناس أن ينهوا معي النقاش بتلك الآية كما اعتاد البعض على السب وربما التطاول بالأيدي، وحتى هذه الآية لا تمثلني فالكفر هو تغطية الشيء أو إخفاؤه كما جاء في المعجم الذي ابتُدِع بِيَد البشر، وأنا لا أخفي شيئًا، أنا لا أرى شيئًا من الأساس حتى أخفيه، ما فائدة كل هذه الأديان؟ إن كانت تدعو إلى الله؟ وإن كان الله واحد فلماذا تعددت طرق عبادته؟ بالطبع لم أُخلق هكذا،

ولو أبي أرى أننا نولد هكذا لا نعلم عن الله شيئًا، وكل ما نتعلمه من آبائنا الحرام والحلال، ومن ضمن المحرمات الكبرى (الأسئلة) أنا ابن لامرأة مسلمة ورجل مسلم، كلاهما لا يعرف شيئًا عن الدين، فقليلًا حتى ما رأيت أمي تصلي. فأما أبي فما رأيته يصلي قط، وكل معلوماتهم عن الدين يأخذاها من شيوخ التليفزيون، فكنت أستمع أحيانًا لمن يحرم منهم كل شيء ويحلل ما يحرمه العقل كمثل الزواج بالبنات الصغيرات (الحور المقصورات في الخيام)، وتساءلت في نفسي عن أشياء كثيرات، أيصح لرسول أن يتزوج بكل هذا العدد؟ أيصح لنا تكفير المسيحيين؟ ثم رأيت ما يحدث من الجماعات الإسلامية من قتل وأعمال تقشعر لها الأبدان، ثم رأيت اضطهاد المسيحيين وقتلهم في اثناء قيامهم بطقوسهم الدينية بشتى أنحاء مصر ثم هنا في خانكتنا المظلمة، وفي الكنيسة الوحيدة وسط زحام المساجد، حدث انفجار في أول هذه السنة، في أثناء الصلاة، ومات في هذا الانفجار صديقي الوحيد "رامز". تعاطف معهم أهل بلدتنا جميعًا. لكنه تعاطف دام لساعات قليلة، فما شعرت الأمهات المسلمات بما شعرت به أمهات الأموات من انفطار القلب والكسرة وشعور الغربة داخل البلاد.

كان صديقًا لأبي يومها زائر في بيتنا فسمعت منه كلامًا عجيبًا، قال:

– لماذا لا يستوطنون مكانًا لهم كما فعل اليهود، ولماذا يشاركوننا الوطن؟"

فصعق أبي كما يصعق من كلامه دائمًا، فبدأت في استنكار ما يقوله وقلت في غضب:

- فلترحل أنت فبلادنا في تأخر بسبب أمثالك.

فنهرني أبي، واعتذر له وقال إنني في حالة سيئة لأن أحد أصدقائي مات في الحادثة.

فقلت إنه صديقي الوحيد، وأنه لم يمت ولكنه استشهد، وتركتهم وذهبت لمكان الحادث.

بدأت أُنقب في أشلاء الضحايا عن الأسباب لا أرى شيئًا.

أشتم رائحة الدماء، يتكون على عيني من البكاء ضباب، وأصيح بكل الأرجاء بأي ذنب قتلوا!! أهو عقاب بدون أخطاء؟ ام هو خلاص من العذاب؟

كان رامز رمز للإنسان الكامل، حتى إنه كان أملًا لمعظم البنات حتى المسلمات منهن، لكنه كان مستقيمًا وبارًّا بأهله،ومنتميًا للكنيسة بإخلاص لا يُوصف، بدأت الميل إلى الدين المسيحي بتسامحه وفضائله، لكن عقلي لم يقتنع بالعهد القديم بما يتضمنه من قصص الأنبياء التي لا يصدقها عاقل، وأفعالهم الشائنة التي لا تليق بهم كونهم أنبياء. لكني أحببت كثيرًا مما في الإنجيل وجاءت أمامي هذه الآية بعد الحادث فأيقنت حينها بهذا الدين:

"بَلْ تأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً للهِ. وَسَيَفْعَلُونَ هذَا بِكُمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الآبَ وَلاَ عَرَفُونِي." بدأت أؤمن بصلب المسيح وأنه المخلص،وكنت قد عزمت على التعميد، لكن إيماني هذا لم يمتد كثيرًا، حينما بدأت أتساءل:

إذا كان المسيح هو الله فهل مات الله لثلاثة أيام؟ أيصح لله أن يموت؟ وإذا كان ابنه، أيسمح الله بأن ابنه يعذب؟ أيحتاج الله أن يخلصنا بالدماء والعذاب؟ أليس هو بقادر على الغفران بدون أي من هذا؟

وزاد احتدام أفكاري حينما علمت من بحثي الكثير على الإنترنت أن تاريخ الدين المسيحي كان مليئًا بالعنف على مثال الدين الإسلامي، فاستنكرت كل الأديان، الدين، قتل صديقي الوحيد.

في عيني اليمنى عيب خلقي، مصاب أنا بورم وعائي (Hemangioma) نشأ وتَكوَّن خلال طفولتي، فزاد قبحي قبحًا. فأين العدل في هذا؟ ما السبب وراء مرضي؟ وبأي ذنب أُخذت كي أولد هكذا؟ وغيري من أطفال تعاني قبحًا وتعاني مرضًا يأكل أجسادهم ويجعلهم يبدؤون حياتهم بوجع. ألم تقولوا إن المرض ابتلاء للمؤمن واختبار لقدراته، فهل يصح أن يُختبر طفل لا يعي شيئًا؟ إنها الطبيعة المتقلبة التي لا تعي شيئًا، اعتقدت لبرهة أن لكل موجود خالقًا، فلا بد من خالق لكل هذا لكنني حينما تخيلته خالقًا يفعل كل هذا، ذهب يقيني بعيدًا، فحياتنا فوضوية، وكثير من الأحداث لا أجد لها تفسيرًا، ما الداعي لولادة طفل يموت بعد ولادته بسنتين وربما بيومين؟ ما الداعي من وجود إنسان عاش ومات وما عاش وما ذُكِر بخير أو سوء؟ يقولون إن الله عُرفَ بالعقل، وأنا أرى أنه ربما يُعرف بالقلب، وأنا خالي القلب، ما أحببت يومًا وما أحبني أحد يومًا حتى أمي وأبي، فأين هو من كل ذلك؟ بالإضافة إلى أنني لا أرى المتدينين في بلادنا عارفين بالله وإن ظنوا، شعرت بظلم ونقمة لا توصف حين أخذ مني

إلهكم صديقي الوحيد، ولطالما شعرت بهذا الظلم كلما رأيت في المرآة وجهي، كيف يختلفون في تسمية الفاجعة؟

لو كنت أخطأت في حياتك فالفاجعة هي تكفير عن الذنوب، وإن كنت حسن الخلق وقريب إلى الله فالفاجعة حينها ستسمى ابتلاء، وما هي إلا ألاعيب البشر، وأمور الطبيعة.

اعتاد أبي وأمي أن يقارنوني بأخي الأكبر الذي أخذ كل ما كتروه من مال. فالتحق بالمدرسة الخاصة ثم جامعة خاصة، أما أنا وأختي نوران، فكان نصيبنا الركل في مدارس الحكومة ثم اللوم الدائم والمجاهرة بقول:

"انت طالع غبي مش زي أخوك"

أمام كل العائلة، لم أفلح في شيء إلا حفظ القرآن وما نفعني. ثم بعد افتتاح محل أخي، ومشاهدتي له وهو يمتلك محمولًا بآلاف الجنيهات وأنا ماكث في مكاني، لم ألتحق بجامعة وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، أعمل في مقهى لا يأتيه إلا العواجيز والرجال الفارين من زوجاتهم ويندر فيه وجود الإناث، لا أخاف نارًا، إن صح وجودها، هي أهون عندي من هذا العذاب النفسي الذي يلاحقني.

ذهبت مرة لأمي وأنا في الخامسة عشرة وقلت لها إني متعب نفسيًّا وأريد زيارة طبيب نفسي لأني أعاني طوال الوقت الوخم وضيق الصدر ووجعًا في العظام وأطيل التفكير في كل شيء، وأحيانًا أصاب برعشة في اليد.

فضحكت وقالت:

- يا شيخ اتنيل، بطل بس النجاسة اللي بتعملها بالليل وانت تبقى كويس، جاتك نيلة.

وكانت عيناي مغرورقتين بالدموع وأنا أشكو لها، فما عانقتني وما التفتت إليّ ربما لو فَعَلَت كنت أكتفي بهذا من دون طبيب.

أنا لا أُؤمن به لأنه ليس بقريب كما قال وما سمع دعائي قط كما وعد.

وبرغم عدم إيماني به، ومن ثم عدم إيماني بكتاب محمد، إلا أنه قوي اللغة، وأشبّه حالتي الكئيبة هذه ببعض مما كتب محمد، فأنا في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، اذا أخرجت يدي لم أكد أراها، كنت أتمنى حقًا أن يكون موجودًا..

زين كامل المنيري

2015/9/17

***

الكاتب

انتظرت من يحيى تعليقًا بعدما تكلمت كثيرًا عن أسباب الإلحاد الاجتماعية، وأفضت في الحديث المتكرر كلما ذكرت كلمة إلحاد، لكنه همَّ وقال:

- هو الكافر والكفر والإلحاد والملحد والإيمان والمؤمن والزنديق والزندقة.

هو الصحراء والبحر والقلم والمطرقة.

هو العشق والهجر والجنة والمحرقة.

هو الحاضر الماضي، الجلاد والقاضي، هو الوهم والواقع والتعقل والجنون.

هو الأعمال والأفعال والحركات والسكون.

هو الجن والسحر والحذو والهرطقة.

إن أحببته أحببت كل الكل المختفي منه والظاهر، الخبيث والطاهر، الغاية هو، وما كل هذا وهذه إلا كلمات علامات، ما خلا شيء منه ولو خلا ما بقي.

هذا الشاب لسان حال أهله كان يقول: لا تتنفس، أمسك عليك نفسك ولا تتحدث، لا تتألم، ورد البكاء إلى عينيك، ولا تدمع، لا تصرخ ولا تئن، لا تنظر ولا تحن، مت، كن أبكم، كن أصم، احمل الهم، ولا تحيا!

فدفنوا عقله، فأكتشف فجأة أن بإمكانه التفكير، فشت.

***

بدأ زوج مريم في النزول إلى العمل كعادته، فرجعنا إلى حالة العشق كما كنا. ازدادت النيران في الاشتعال ما بيني وبين مريم، حتى انطفأت في اللقاء المنزلي الثاني، حينما جاءت لي متألقة كعادتها، إلا أنها أطالت خط الكحل في عينيها، أنا الأكثر ميلًا للسادية في الجنس، كنت معها عذب ورؤوف وحنون.

إنها مريم، موتي المشتهى. كان في رأسي صوت الشاعر محمود درويش يقول لي: "انتظرها"، وانتظرت لكنني لم أنتظر كثيرًا، فعيناها كانتا تأمرنني بألا أنتظر وأنا لست إلا رجل متيم لا يطيق الانتظار، وكان اللقاء المنزلي الثالث والرابع بنفس قوة الثاني، وكان يسير الأمر على هذا المنوال:

تأتي فأفعل بها ما يحلو لي،فنهدأ،وتذهب، فنتحدث عن الأمر بالساعات ونتخيل أمورًا جديدة نفعلها معًا فنهتاج ونجن، فتأتي، فنهدأ، فنتحدث، وهكذا.

ما في مريم يختلف عن النساء، لا يوجد بها شيء ذميم، رائحتها حياة، ومكامنها كنز مخفي، أتوه فيها فلا أعلم من أكون. لا أشبع منها أبدًا، وحتى بعض انطفاء الشهوة واستكانة البدن.

أرتاح على صدرها الناعم كطفل لا يعرف عن الأرض شيئًا،عشق مريم قليله مسكر، وكثيره غير مشبع، في حضرته يثمر، وفي غيابه مفزع، في انتقاصه شغف وجنون، وغايته منتهى وسكون.

والآن هي لا تريد أن تأتي، وتقول إنها لا يمكنها ترك ابنتها مع أحد لأن عمتها سافرت، وعلاقتها بأمها ليست على ما يرام، بالإضافة إلى أنها تخاف وتشعر بذنب مُدوٍّ، ولا يمكنها النوم من حمل هذا الذنب.

بعد إلحاح مني، اتفقنا على أنني سأذهب إليها أنا، بعدما تنام ابنتها. فغدًا، سيسافر زوجها ليلاً ولن يأتي إلا بعد يومين، ومصادفةً، فالرسالة القادمة هي الأخيرة قبل رسائل مريم، فسأذهب إليها غدًا ثم ألتقي بعدها بالشيخ يحيى في الثالثة صباحًا في البيت كعادتنا.

***

كامل

الحياة الدنيا

إقراري بأني قد أخطأت في بعض قرارات حياتي صعب. حتى وإن أقررت هذا واعترفت به لنفسي فقط، فيكون هذا الاعتراف على سبيل الفرضية وليس الجزم بأني أخطأت، اتهمني أولادي بأن مشروعاتي فاشلة، فصرفت النظر عن المشاريع ولم أكن أرى أنها فاشلة، فقد كان سوء حظ ليس إلا. ثم الآن كثيرًا ما يقولون يا ليتك فعلت لنا شيئًا لكان حالنا الآن أفضل.

يتهمونني أيضًا بأنني قد فرقت فيما بينهم في التعليم، لم أفرق، فقد جاء الولد الأول ورزقه أمكنني من إدخاله مدرسة خاصة، لكنني لما جاء بعده البنت والولد، لم أقدر على مصاريف ثلاثتهم. بالإضافة إلى أن محمدًا ولدي الأكبر هو الأكثر ذكاء، فهو الأحق بالتعليم المميز.

ها أنا قد بلغت من العمر أرذله، ولم أفعل أي شيء لنفسي، لم أدخر شيئًا، لا لي ولا لأولادي البائسين، لم أدخر شيئا وما اكتسبت شيئًا، حتى حبهم لي تلاشى من قلوبهم واحد تلو الآخر، إذا تلوت قصتي قبل الزواج سيظن البعض أنها قصة تصلح لأن تتلى على الناس ليزدادوا إرادة وإصرارًا. فقد كنت أنا الأخ الأكبر الذي حمل كل الأعباء وحيدًا، فقد مات أبي وصـــرت لأمي رجلًا ولأخي أبًا. أكملت تعليمي وكنت أعمل في كل المجالات. ثم ماتت أمي بعد تخرجي في الجامعة مباشرةً. لم أتأثر بموتها كثيرًا، هو فقط اشتياق كان ينتابني من حين لآخر، لكنني لم أشعر بغيابها بعد موتها، لأنني ما شعرت بوجودها وهي حية. ما كان بيننا أي حديث ولا أي تفاصيل حياتيه، حتى أوقات الطعام لم تجمعنا. كانت دومًا تضع لي الطعام وتذهب. فأما أخي رحمة الله عليه، فقد كان مريضًا بالصـــرع هائمًا دائمًا حتى قبل مرضه، لا أعرف له حالاً.

عملت جاهدًا حتى امتلكت شقة وتزوّجت،فظننت أنها النهاية السعيدة التي نراها في الأفلام بعد معاناة البطل وكفاحه. ولم أكن أعلم أن النهاية التي نراها في الأفلام تختلف كثيرًا عما نراه في الحقيقة.

مضت الأيام والسنوات في مهام العمل وصراعات البيت ومصاريف الولادة لثلاث مرات، ثم الفرحة القصيرة المصاحبة لأول ضمة للمولود والمصاحبة لأول كلمات ينطقها وأول خطوات يخطوها وما إلى ذلك من أمور، القلق والتوتر والضغط الذي يصاحب دخوله المدرسة، مرت كل هذه السنوات مســـرعة لكثرة ما كان فيها من مسئوليات وأعباء وصراعات.

كنت لهم مجرد آلة تأتي بالمال، لم يحاول أي منهم التقرب لي وحتى أنا لم أحاول، فأنا لا أجيد التعامل معهم ولا مع أي أحد، أنا حتى لا أمتلك أي أصدقاء، لم أكن حتى وسيلة ترهيب لهم، فقد أقصتني زوجتي تمامًا من تربيتهم، ويا ليتها نجحت هي في تربيتهم! فأحدهم ألحد، وأودُّ لو قتلته بيدي، والبنت لا تطيق الحديث معي وتنهرني باستمرار وأظن أنها تدخن، ولا تريد الزواج أبدًا، أرى قرب أولادي من والدتهم، فأغار من هذا الدفء الذي فارقته عن عمد وباختيار كامل. محمد ابني الأكبر هو الوحيد الحنون عليَّ، والناجح في عمله وهو صديقي الوحيد، وربما يتزوج قريبا فأبقى وحيدًا وسط عائلتي.

بدأت حالتي الكئيبة هذه منذ إحالتي على المعاش المبكر لضعف نظري، اختنقت من قسوة المعيشة وعجزي عن الرؤية بوضوح ولا أمتلك مالًا لأصلح ما أفسدته العمليات الكثيرات التي زادت من بلة الطين وزادت من ضعف نظري.

العجز لا يؤلم في كونه عجزًا، بل آلامه تكمن في احتياجك للآخرين وضعف قدرتك على فعل أشياء تعودت فعلها بمنتهى اليسر. ربما لو كنت أعمى منذ الصغر ما كنت عانيت الآن. ففي أحيان كثيرة، الفقدان يكون أصعب من الحرمان. أحمد الله أني لست مشلولًا فالشلل أشد وطأة. المعاش ضئيل جدًّا بالنسبة لمصاريف الحياة اليومية. أشعر أني غريب في بيتي.

أعلم أنهم لا يطيقون جلوسي الدائم في المنزل، والحق معهم، فقد كنت غائبًا عنهم طوال هذه السنوات التي مضت، لا يرونني إلا مصادفةً. ثم

فجأة، أصبحت ليلًا نهارًا في وجههم. أنا بالنسبة لهم غريب، وأنا السبب في ذلك، وهم بالنسبة لي مجرد زينة الحياة الدنيا، لا أنتظر منهم محبة ولا حتى دعاء بعد الموت. فأين هذا الموت؟ فالموت أحيانًا أرحم من العجز. سأعيش ما تبقى من أيامي في انتظار الموت، وإن مت ستستمر الحياة لا محالة، ولن يعلم أحد أني عشت.

أنا كذرة تراب من عاصفة رملية تحركت من الشمال إلى الجنوب فإذا نظر إليها أحد لم يعلم إن كانت هنا منذ الأزل، أم أنها جاءت رغمًا عنها، وربما لا ينظر إليها أحد من الأساس.

كامل المنيري

2015/10/7

***

الكاتب

ذهبت إلى مريم،سألتها كثيرًا حينما وصلت، إن كان يوجد أي احتمال لقدوم زوجها، فطمأنتني ضاحكةً، وجزمت أنه لن يأتي.

في غرفة نومها،كان الدولاب مفتوح،وأسرعت بقفله، لكنني لاحظت، مسمارًا مثَبّتًا في بابه يتدلى منه سلسلة. بدت لي دلايتها أنها الجزء الآخر من الملقاة في البيت، والتي ذكرها محب في كلامه، لقد كانت تحبه! لكنني واثق بحبها لي الآن، من المؤكد أنها فقط نسيت التخلص منها.

قطع انهماكنا صوت طفلة مريم وهي تبكي، فأزاحتني من عليها، وهرولت لتلبس روبًا وذهبت إليها. وقفت في منتصف الغرفة، عاريًا كما ولدتني أمي، متعجبًا،لقد سمعت صوت بكاء هذه الطفلة وأنا أمارس الجنس من قبل.

لا لم أسمعه لكني تخيلته من قبل وانا أضاجع زوجتي حينما كانت تطلب مني التوقف لأنها تشعر بوجع، ولكني لم أنتبه إلى ما تقول، فاستمررت حتى رأيت الدم لقد كنت السبب في إجهاضها، سمعت حينها بكاء وصريخ

طفلة يصم الآذان لا أعلم إن كان حقيقيًا يأتي من بيت الجيران أم كان خيالاً ينبع من رأسي.

كان حَملها بعد معاناة دامت طويلًا، كانت كثيرة الإجهاض، وحملها الأخير كان غير ثابت، وقد حذرنا الطبيب من الجماع، وكنت دائم العنف معها في العلاقة الحميمية.

قد طلبت مني زوجتي بأن تستريح يومها، لكني أصررت على اللقاء، بل تماديت في العنف، كنت أجامعها من الدبر، كي لا يؤذيني منظر بطنها الذي لم يكن قد انتفخ بالكامل بعد.

كنت أضاجعها بوحشية وهي تستجديني وتطلب مني أن أتوقف لأنها تتوجع، وتوجعها وصراخها يزيد من فوران دمي ويزيد من شبقي، فأستمر كأسد قوي يلتهم غزالاً ضعيفًا. تذكّرت منظر الدم، وزوجتي عارية تنظر إليّ وتبكي لأنها الأم التي فقدت جنينها بسبب وحشية زوجها.

رجعت مريم الغرفة باكية، قالت إنها لا تطيق كل هذه الذنوب وأنها استحت من حضن ابنتها.

حكيت لها، وكل منا شرد فيما شعر الآخر، وفيما يشعر داخل نفسه، ومشيت.

هاتفني الشيخ يحى ليُذكّرني بموعدنا اليومي في البيت، لكنني لم أتمكن من فعل أي شيء، ورجعت إلى بيتي، لأُسْجَنَ في ذكرياتي.

أهل النديم، لا يقرؤون لبعضهم البعض، أنا أكثر منهم بؤسًا، لم أواجه نفسي حتى بذكرياتي، ولا بأفعالي.

ماذا لو كانوا يقرؤون ولا يكتبون؟ ولكن كيف سيفهم بعضهم الآخر؟ لا بد في النورين معا،نور القراءة ونور الكتابة،نور الكلام ونور الاستماع، يجب على كل فرد أن يكون مستقبلاً ومرسلاً في آن واحد.

العقل أدرك بعض الأشياء فظن بغروره كإله أنه أدرك كل شيء.

إلا أنت يا الله، لا يمكنني إدراكك بعقلي، لكنك بداخلي تجري. ألا يمكنك كي أُطمئن عقلي أن أناديك مرة سائلاً:

هل أنت موجود؟ فتمنَّ عليَّ بإجابة مبينة: نعم!

فيهون كل عذاب الدنيا.

أين أنت يا الله؟ حبل الوصال ما بيني وبينك انقطع.

المنكر لوجود الله مسكين جدًّا. لقد يئس من الحياة بشكل قطعي، حتى أنه تخلى عن الأمل الاخير وهو وجود الله ووجود دار آخرة من الممكن أن تحقق له السعادة.

هل فارق يحيى الناس، لأنه يريد مرافقة الله، أم لأنه أراد اعتزالهم لأنه مختلف عنهم؟

اكتأبت، واعتزلت كل شيء وصل بي بؤس حالي إلى لعب ألعاب المحمول التي تأكل الوقت. اللعبة التي ألعبها عبارة عن حروف متفرقة ودورك هو تكوين كلمات مختلفة من تلك الحروف فنمت وأنا ألعب حتى

رأيت في نومي الحروف وبقيت أكون الكلمات في حلمي، حتى تكونت كلمة فأر، وتكون من الحروف هذا الفأر الذي أراه دومًا.

هذه اللعبة تشبه الحياة، عناصر ثابتة، يتكون منها مخلوق مختلفة بمعانٍ ومصائر مختلفة تمامًا. أظن أن ابن آدم بائس ووحيد بطبعه، والحزن فرض وحق على الجميع. الفقير حزين لأنه يكابد في السعي للوصول إلى المال، والغني حزين لأنه أكيد قد حُرِمَ شيئًا ما، وإن كان يمتلك كل شيء وهذا محال، يصيبه الاكتئاب لأنه لا يسعى إلى شيء، يتبدد من الداخل بدون سبب.

لن أكتب بعد اليوم، ولكني أكتب الآن، وسأسعى إلى طباعة قصص البلدة، وحديثي مع الشيخ يحيى. أنا أكذب، لأن الكتابة هي الشيء الوحيد الذي يمنعني من الانتحار. أنا أكذب مرة أخرى، فأنا لا أقوى على الانتحار، أريد أن أفقد الذاكرة، أطلت البحث عن كيفية فعل هذا. ما فائدة الذاكرة؟ ولماذا لا نتذكر ما قبل وجودنا في الحياة؟

لو كان الله أخذ منا الذاكرة ليجعلنا سواء سواسية ليصح الاختبار، فلماذا أشهدنا أصلًا على خلقنا فأصبحنا سواسية؟ فلو كنا نعلم أو نتذكر لصح أيضًا الاختبار في الحياة الدنيا فتكون حينها اختبارًا للقدرات كما هو الوضع الآن وبنفس القواعد، فإما أن نجتاز أو أن ننصاع لما وضعه بداخلنا من شهوات فما الفائدة إذًا؟ ربما لمسح كل ضغوط مؤثرة ليكون الامتحان أصح؟

فلنراجع ما حدث، أو ما نظن أنه حدث ووصل إلينا من خلال الأديان:

رب أراد أن يختبر ابنيه الاثنين، وعَلِم أن أحدهما غيور فأمر الغيور أن يسجد فما سجد فغضب،ولم يطلب الأول الغفران فما غفر. فسمح له بأن يوسوس للثاني ثم أمر الثاني ألا يأكل، فأكل. فكان أمر الأول مفروغ منه وأنه سيلقى العذاب في أجل أما الثاني لأنه استغفر وأناب، فغفر له ربه، وقبل، لكنه طُرد من جنته وأورثه الأرض إلى حين..

ليكن.. لكن هو الذي قال له لا تأكل من هذه الشجرة فتكون من الظالمين إلا أن تكونا ملكين او تكونا من الخالدين. ثم كشف سوءاتهما وهو موضع فروجهما التي سيكونان بسببها خالدين لأنهما سيتكاثران. وذكر أنه لو أكل سيكون من الظالمين أكثر من مرة.. فترى هل الظلم هو النسيان؟ سيقودنا هذا لنفس الشيء الذي ينتقد به الدين المسيحي، ما ذنبنا فيما اقترف آدم؟ أم أن آدم ما هو إلا رمز للإنسانية؟

بعد نحو أسبوع من وحدتي في المنزل، ذهبت ليلًا لننقل آخر رسالة، رسالة مريم.

الشيخ يحيى نقل معي كل الكتابات التي وجدناها في البيت، أعدنا معًا صياغة الجمل. كان يضيف بعض الجمل ذات السجع على لسان أهل البيت فيما لا يخل بالمعنى الذي يريده الكاتب الأصلي، خصوصًا عند تأثره بالراوي. سألته يومًا لما لا نأخذ كل الورق معي إلى الفندق لنرتاح من التحرك بالحاسوب وكشافات النور المشحونة والتوتر؟ فقال إن ما في البيت يجب أن يبقى في البيت. أحيانًا كنا نجد أوراقًا جديدة ألقيت داخل البيت فنضيفها إلى أوراق صاحبها.

مريم

الخادعة

أجعل من أمامي يشعر وكأنما امتلك قلبي إلى الأبد أجعله يشعر بمسؤولية عظيمة تجاه قلبي الحزين المنكسر، وكأنما إن تركني توقفت كل ساعات الزمن، أشفق عليهم وقت انكسارهم إشفاق لذيذ ينتابه بعض الفخر.

يشعر تعيس الحظ هذا من جاء في طريق قلبي أنني أحبه حبًّا ما سبقه وما لحقه حب. العجيب في الأمر، أنني في أحيانًا كنت أشعر بما أقوله وما أفعله، ولكن هذه الأحيان لم تكن كثيرة.

أنا سادية بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. المهم أنني في أثناء كتابتي لهذه الكلمات أشعر بسوء وغثيان ويداي ترتعشان. أتمنى كما تمنيت دومًا، أن يرجع الزمان وأكون مجرد إنسانة طبيعية.

أشعر بذنب فوق كل ذنب محرم، وهو الذنب الذي ارتكبته تجاه كل قلب كســرته، أو عاش حتى الآن واثق بأنه الحب الوحيد في حياتي، وأنا ما سبق لي أن أحببت، إلا مرة واحدة. من الممكن أن أكون قد شعرت

بلسعة الحب، تلذذت بمذاق العشق، أو احترقت بنار الاشتياق وأحسست بلهفة المواعيد الأولى، وأول كلمة أحبك أو أول لمسة يد. لكن هذا الحب المعروف لم أذقه إلا مرة واحدة.

سلّمت نفسي وجسدي ليطمئن كل من افتتن بي أنني أحبه من أعماقي، وأني سأفعل كل شيء لأثبت هذا الحب، ولأن من رأى مني ما هو مخبأ يكفيه ألا ينساني وأن يزداد تعلقه بي. لا أجود بجسدي إلا إذا تيقنت من حبه ومن ضعفه ومن قلة حيلته، فإذا شعرت فيه مكراً أو انتواء غدر بعد المنال زهدته، ولي نظرة في الرجل لا تخطئ أبدًا.

إذا سُئِل أي أحد من هؤلاء الضحايا سيقولون إنني شديدة الاهتياج، وأشتاق دومًا إلى الجنس، ومن الممكن أن يعتبر هذا الكلام صحيحًا، ولكن أحيانًا أشعر أني أحتقر كل ما يمت للجنس بصلة. وإذا تذكرت أي شيء له علاقة بما ارتكبته من جرائم الزنا، ينتابني شعور بالإعياء والميل إلى القيء. لا أعلم حقًا إن كنت أحب الجنس، أم أنني اتخذت منه وسيلة لأملأ هذا الفراغ الكبير بداخلي، ولأثبت لنفسي أنني شخصية عظيمة تمتلك قلب من تريد.

وبصــــرف النظر عن علاقتي مع الجنس الآخر، فأنا أتعامل بنفس الطريقة مع أغلبية الناس، أحاول جاهدة إرضاءهم.

إلى متى سأظل منشغلة بحب الناس لي؟ كسبت حقًا حبهم لكني خسرت نفسي، وخسرت الله، ولن ألاقي نفسي إلا إذا لقيت الله، ولن

ألقاه الله إلا إذا لاقيت نفسي. فكان كل يوم دعائي اللهم أغنني بك عمن سواك، ولا تحكم عليَّ بالهلاك.

أنا ذرات متناثرة لا تلتقي، وإذا التقت ما لبثت يومًا فعادت فتفرقت. هذا الدفء العائلي الذي أراه في الأفلام لم أشعر به قط، لذلك كانت دموعي في وضع استعداد دائم تنتظر أي مشهد مؤثر لتنهمر مني دون عمد، وحتى في الأفراح كنت أبكي،وفي نهاية المســـرحيات عندما يصطف الممثلون ممسكين بيد بعضهم البعض ويعلو صوت التصفيق كنت أبكي. أشعر بنقص وكأنما قد تفرق كياني وما بقي منه إلا هذا الجزء التائه الذي أعيش به.

تزوجت واحدًا من هؤلاء الذين ظنوا أني أهيم بهم، لم أختره، لكن كل ما تميز به أنه كان جاهزًا للزواج. فكانت الخطوبة ستة أشهر، ثم الزواج، واشترطت عليه من البداية استمراري في العمل، برغم أنه ميسور ماديًّا، لكني أهرب بساعات العمل من الحياة الزوجية المملة التي اكتشفت أنها لا تناسبني.

علاقتي بأمي كانت سيئة للغاية وكأني ضرتها التي تغار منها،الأم بالنسبة لي كانت وما زالت مجرد وعاء، سبب لوصول إنسان جديد، وأجد في هذا ظلمًا للإنسان. فربما كان حظك أن تكون أمك امرأة طيبة، أو أن تكون سبب تعاسة أبدية لك، كمثل حالتي هذه، أمي كانت امرأة غليظة القلب، وكانت تحب أختي أكثر مني، ولهذا علاقتي بأختي تكاد تكون منعدمة. ربما تحسنت قليلاً بعد زواجي فأما علاقتي بأمي اصطناعية، خالية من كل العواطف.

ولهذا تعمّدت أن أرضى بأول عريس تقدّم لي.

كنت أترك بيتنا كثيرًا في الإجازات، وأذهب إلى عمتي المطلقة، الوحيدة، البائسة طوال الوقت. مرت بي أوقات كثيرة من الوحدة والملل، خصوصًا في إجازاتي المدرسية لأن أصحابي كانوا يسافرون دائمًا في الإجازة. وفي أغلب الأحيان كانت ظروفنا المالية لا تسمح لي بالخروج كثيرًا.

كانت سمعة عمتي سيئة، ولهذا لم تحبها أمي قط. لكني كنت أدافع عنها كثيرًا، ولم أقل لأي مخلوق، ما رأيته منها حينما كنت في السادسة من عمري، وكنت نائمة عندها في البيت، فاستيقظت على أصوات لم أعرفها، ظننت أنها وحدها في الغرفة وتتوجع من شيء ما، إلا أنني سمعت صوتًا آخر ذكوريًا يتأوّه معها، فتسللت إلى الغرفة ونظرت من فتحة المفتاح، فرأيت ما لم أفهمه، لكني لم أقل لأي أحد، وحتى هي لا تعلم إلى الآن أني رأيتها.

أوقن بأن علاقتي بابنتي ستكون على أسوأ حال. حتى وإن كنت أحاول جاهدةً أن أكون رفيقة بها، لكني أخرج عن شعوري في معظم الأحيان. كانت خائفة جدًّا اليوم حينما صرخت بها صرخات متتاليات، وبدأت أسبها ونكزتها في كتفها الصغير، رأيت وجهها وقد ازرقّ من الخوف وكأنني كنت خارجة عن جسدي، أرى ما أفعله بها ولا أستطيع التحكم به، ثم احتضنتها وظللت أعتذر كثيرًا والغريب أنها سامحتني سريعًا وسألتني في براءة ليس كمثلها شيء:

- انتِ صالحتيني؟

ثم انتابني شعور بالذنب عظيم.

تخاف كل الأمهات على أبنائهن من الناس، وأنا أخاف عليها مني. أنا إنسان لا يستحق الحياة، ولا أعلم ما الذي يقودني لفعل هذا. ابنتي صعبة التعامل، لكني أعلم أن هذا ليس سببًا لردود فعلي المريضة هذه فهي نَجاتي وهِدايتي وحبها في قلبي غريزَتي وهي حياتي وسَجيتي، هي الانشقاق مني من دون افتراق، وهي المِرآة التي تعكس كل ما هو جميل. فأما القبيح، فتبعده عنها حتى يتجمل ويتطهر بها ولها. يا ليتني ما كنت أمها!

في بيت أهلي كنت أشعر بغربة، وهنا أشعر بغربة أيضًا. أبكي في غرفتي وحيدة بكاء يقود جسدي إلى اهتزازات بالغة، وتشنجات، ثم أزوغ بعيني محدقةً إلى كل أنحاء الغرفة لعلي أرى أحدًا يراني أبكي، فيحتضنني، فلا أجد، فألف ذراعي عليّ لأحتوي نفسي بنفسي.

لقد أصبحت مائلة نحو العزلة،وما كان يومًا هو همي الأكبر والإحساس الذي لم أكن أطيقه وهو الوحدة، الآن أصبح أملي.

وهنا يأتي السؤال،ماذا لو تحقق هذا الأمل،هل سأكون سعيدة وراضية؟ أم أنني سأظل في احتياج دائم لكل شيء لا أمتلكه؟

كنت أحب الرسم منذ الصغر، لكنه غاب عني كحلم، حتى تزوجت وابتدأ جنوني به يظهر، ربما لأنني لم أجد وقتًا قط لأحلم بأي شيء، أو ربما كنت مخطئة بظني أن عوض الله لن يكون إلا بالزواج،ربما لو كنت أدركت لكنت التحقت بكلية الفنون الجميلة، أو حتى حضرت ورشات تعليمية للرسم.

حياتي مع ياسين كانت هادئة في البدايات وسعيدة إلى حد كبير، ولكن تغير كل شيء فجأة، انفصلت عن الواقع وبدأت في التحليق الدائم، حتى أنني أصبحت في علاقتنا الجنسية باردة برود الثلج، فأصبحت أرى هذه العلاقة وكأنها اقتحام لذاتي المستترة خلف جسد ينتمي لي.

بعد زواجي بقيت مخلصة لعامين، ثم تعرّفت إلى شاب.

تعرّفت إلى يونس من خلال الإنترنت، ثم تبادلنا الحديث كثيرًا، فهو شخصية شائقة للغاية، يظن أنه مختلف، ومن منا لا يظن أنه مختلف؟ لكنه يقول إنه يتذكر أحداث من عالم الذر،شعرت بإعجابه بي،ففتحت له الباب كي يتشجع ويعطني جرعة من هذه الكلمة التي أدمنت سماعها (بحبك)، فقالها، ثم سلمت له نفسي كاملة لأول مرة بعد زوجي، فكل من كان قبله لا يصلون إلى ما يقلب حالي من بنت لامرأة.

ظن يونس أننا عشنا في هاليب العشق، حتى أنه حينما تأكد من حبه لي وهام بي، طلب مني مرارًا أن أترك زوجي، فانسحبت في هدوء.

زوجي عصبي بطريقة لا تحتمل، ويتطاول عليَّ كثيرًا سواء بالألفاظ أو بالضرب. لكنه حنون وأعلم أنه من وسط كل من عرفتهم، هو الأكثر حبًّا لي. بالإضافة إلى أني مرتبطة عاطفيًّا بمنزلنا، ولا أريد لابنتي التشتت، برغم أن في طفولتي كثيرًا ما تمنيت أن تتركنا أمي وتذهب بعيدًا.

ولا أعلم حقًا إن كان حالي سيتغير لو ذهبت أو كان سيبقى كما هو الآن، ربما تتمنى ابنتي يومًا أن أتركها.

حينما كنت مع يونس لم أكن سعيدة، وما استمتعت قط. كان جبروتي عظيم، فكنت أحيانًا أترك ابنتي مع زوجي لأذهب إليه، وكثيرا ما تخيلت ابنتي تنظر إليّ وأنا أمارس هذا الفُجر، ما أيقظني إلا بكاء زوجي في مرة ضربني ثم انتابه تأنيب الضمير كالعادة. لكنه في هذه المرة كان يرتعش خوفًا أن أتركه، هو لا يعلم أنه إذا تبين له ما أفعل سيتركني هو بإرادة حرة، فقررت أن أخلص له ليس لأنه زوج مثالي، لكنه المثالي لي، فالخبيثون للخبيثات، وحينما سافر لشهرين خنته مرة أخرى، وأخرى، ثلاث مرات، ثلاثة رجال.

وبعد كل مرة، ألوم نفسي، فأستغفر، وأصلي باكية طالبة المغفرة.

في لقاء حميمي مع زوجي تخيلت فيه أنه مُحِب، وساعدني في هذا إغلاق جفوني، والتشابه الذي يجمعهما، ولا يراه أحد غيري. فكان هذا اللقاء أحلى لقاء بيني وبين زوجي، لكنه أشعل الاشتياق في قلبي لحبي الأول والوحيد.

محب كان خلوقًا حد الملل، حتى أنني أنا من سبقته في أول لمسة يد وأول قبلة اختطفتها منه، حتى ذُهل.

لكن هذه الضمة التي سبقت الوداع هو الذي قادنا إليها. لم تمتد إلا لثوانٍ معدودة، بها وبأحضان ابنتي يحتسب عمري.

عرفت أنه أصيب بجرح خفيف في قدمه في أثناء حادث الكنيسة، في الأيام الأولى من هذه السنة الكئيبة.

كثيرًا ما كتبت له رسائل ومحوتها بدون إرسال.

اليوم سيتزوج، وسأحضر رغمًا عني زواجه، لأن عروسه هي أخت زوجي، من بين كل النساء اختارها حتى أتعذب أنا.

في حياتي شخصيات أتمنى أني ما كنت قد عرفتهم من الأساس، وأخجل من نفسي أني عرفتهم. أما هو، فأخجل من نفسي أني تركته، هو ذلك الرجل الذي ما عرفت فيه عيبًا إلا الطيبة الزائدة. هو مثالي ليكون للمرأة صديقًا وصاحبًا وحبيبًا ثم زوجًا، ربما إن كنت لم أتركه لكنت شيئًا آخر الآن، وكنا زوجين إلى الأبد، أتذكر ضمته التي كانت، ويا ليتها دامت! وخصوصًا آخر مرة، كانت ضمة خفيفة بدون التصاق الجسدين، لكن الأرواح بها التصقت إلى الأبد. هو الحب الأول والأوحد في حياتي، أحببته وأنا في السادسة عشرة،وأنا الآن في الثلاثين من عمري، وما زال يسكن في قلبي.

أريد أن أتحدث مع أحد، ومن يوم فراقنا لم أستمتع بالحديث مع أحد، حتى زوجي. تحدثت معه كثيرًا وربما أدرك ما قد قلته، لكنه لم يشعر، وربما شعر ولم يدرك. أما معه، لم تكن اللغة هي السبيل الوحيد بيننا، أعلم أنه كان يعي ويدرك ويشعر بما في داخلي وكأنه بداخله، أتذكر جيدًا حينما كنا في البدايات، سألتني صديقتي المقربة وقتها، ما الشيء المميز فيه؟ فقلت من قبل أن أعرفه جيدًا "زيي"، كأني أرى جزءًا مني فارقني فيه، فكان بالنسبة لي الكمال. هو الإنسان الوحيد الذي يمكنني الاكتفاء به، يمكنني

تقبُّل الحياة به، يمكنني التغاضي عن كل الأوجاع التي كانت هو الوحيد الذي إن اقترنت به، سيغنيني عن العالم، هو محب.

لا أعلم إن كان يحتفظ ببعض الحب لي، أو حتى بعض القبول بسبب ما فعلته، لكني سأكون أنانية كما أنا دائمًا وأتكلم معك عما في داخلي.

في داخلي يا حب عمري جنون، وأظن أنه جنون لم يُشَخَّص قط. جنون يعلم فيه صاحبه أنه مجنون، بل يمكنه التحكم فيه بنسبة كبيرة، وكأن بداخلي عقلين، واحدًا منهم نجا والآخر في أسفل الأسفلين، كلاهما يحاول السيطرة على الآخر، تركتك خشيةً أن يلتهمك جنوني، فأنا لا أطاق، ولا أصلح للحب ولا أصلح لأي شيء، أفكر في ترك ابنتي كما فعلت معك، ما ذنبها هي تلك البريئة التي لم تُشَكل بعد أن أكون أمها؟ وأن أكون الجزء الأكبر المؤثر في تكوين شخصيتها؟ فربما تلوم هي أباها يومًا على اختياره لي. أحبك أنا كوهمٍ، أو كحلمٍ تريد رؤيته وأنت نائم، أخاف يا حبيبي أخاف، كم تكلّمت معك في سرّي، ولم تعلم! كم أطلت النظر في صورتك وبكيت! تخيلت أني أترك المنزل وأترك الناس وكل شيء وأخرج في الطريق وأغيب عن أعين الناس، لكن هذا الجزء الصحيح في عقلي لا يسمح لي. أحيانًا أشعر وكأنما الكون كله يدور حولي، وأحيانًا أخرى، أشعر أني خلل ما حدث في الطبيعة. لم أرسل لك هذا الكلام لأني أدركت أن أنانيتي تظهر واضحةً مع كل إنسان حتى ابنتي، لكن معك الوضع مختلف، فكأنما أنت الجزء الوحيد الطاهر بي. فلا أريده أن يتنجس قط. يا ليتني كنت أنت!

حتى الموت،لا أريده لأني أخاف عذاب الله. فيا ليتني كنت نسيًا منسيًّا، مُحِب كالنهر في الليل، لا يميزه شيء، لو خلى من المراكب المستنيرة، أما أنا كالبحر الذي يخيف ليلاً ويمتلئ بالآمال في النهار، ويشفق على الأنهار..

قابلت أنهارًا كثيرة أملاً في أن يصبح مائي عذبًا مثلها، فما حدث شيء، بقيت كما أنا أصلح للسباحة والصيد لكني أبدًا لا أصلح للشرب، لا أروي أحدًا ولا أرتوي أبدًا.

لست كبقية الآخرين أوهم نفسي بالتأقلم والرضا، كيلا أشعر بالضعف.

أنا ككرة تدحرجت على ماء غير نظيف ثم طين مبتل، وأبعدها الرياح بعد ذلك إلى صحراء متسعة كنت بها تائهة ومتسخة.

اللهم أغنِني بك عمَّن سواك. اللهم انتزع من داخلي حبي لمحب، اللهم اجعلني أمًّا صالحة.

مريم مرزوق

2015/11/15

***

الكاتب

مريم كوردة حمراء، تسر الناظرين، تبدو جميلة، اقتربت منها متأهبًا كي أشتم رحيقها الذي ظننت أنه جميل، ففزعت من رائحتها العطنة، تصلح للمشاهدة والنظر من بعيد، هكذا تبقى جميلة.

بتلك الرسالة التي قصمت ظهري وخبطتني على رأسي،تنتهي الرسائل، أو بعض الرسائل التي نويت مع الشيخ يحيى نشرها.

لم تذكرني مريم حتى كرفيق، أو كمضاجع ماهر برغم أنها قد أضافت بعض الكلام والدعاء في التاريخ المدوّن آخر رسالتها.

أنا لست الأول ولا الأخير، هي امرأة مومس بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

لم أجد في رسالتها ما يدعوني للشفقة.

تبدو مريم كالثلج الذي أوشك على الذوبان، وما هي إلا قطعة من الزجاج لا تذوب، تنكسر ربما، ثم تجرح من حاول الاقتراب منها،

والإمساك بها، تظنها صلصالًا يتشكل في يدك إن امتزج بالماء الذي هو الحب، لكنها ليست سوى قطعة من حجر.

أخذت رسالة مريم، بدون علم الشيخ يحيى، انتهزت فرصة إلقائه النظر على ما دُوِّنَ على حاسوبي المحمول.

لماذا أخفيت عن نفسي رسالة مريم كل هذا الوقت، لماذا لم أبدأ بها علني اتقيتُ شرها منذ البداية؟ هل وددت أن أعرف عنها فقط ما تريد أن أعرفه؟ أم أنني أيقنت أنها صادقة؟ كان من الطبيعي أن أنظر في رسالتها من باب الفضول، لكنني كنت خائفًا أن تحتوي الرسالة على بعض من وصفها لزوجها، أو تذكره فيها بشيء من الحب.لم تذكره، لكنها ذكرت فجورها، وخياناتها، ونزواتها وساديتها المفرطة.

ظننت أنني الأكثر سادية في الكون، لكنها تخطتني، أو ربما هي مثلي، كل منا معتدٍ وآثم، لكنني لا أرضى لنفسي الهوان، لا أرضى أن تذكرني بشفقة أو شعور بالذنب به يمتزج إحساس العظمة والجبروت، لا بد أن أكسرها وأفعل ما يؤذيها.

قررت أن أذهب لها في اليوم التالي، هذا الحي الذي لم أعتبره أكثر من مجرد مغامرة تحثني على الكتابة.

ذهبت إلى شقتها ومعي رسائلها لأعطي زوجها المسكين إياها ليعرف حقيقتها، وليعلم أن هذا الفرج الذي يمتعه ليس ملكًا له وحده، بل هو ملك لأي رجل تشتهيه زوجته،ويكفي فقط أن يقول لها أحبك كي تسلمه له، أحبك هي التسعيرة التي وضعتها لنفسها.

لما وصلت وضغطت على جرس الباب، فتحت لي مريم ببهاء طلتها. صُعقت واضطربت،ولما رأيتها تعثرت، وابتلعت ريقي وضعفت قواي، حتى استجمعتها لأسألها عن زوجها، إلا أن طفلة أخرجت رأسها من وراء مريم، كانت بيضاء مستديرة الوجه،متبسمة وبريئة العينين، ما مصير هذه الطفلة؟ تشتت، حتى أنني لم أكن أعرف ما الذي أفكر فيه، غابت عني أفكاري وتناثرت حتى تاهت وتلاشت، فمددت يدي برسائل مريم لمريم ومشيت.

ندمت ندما عظيمًا، لأنها لم تكن تستحق عطفًا، لم تكن تستحق فرصة ثانية مني، أهي يد الله التي سلبت مني الإرادة، وكانت فوق يدي حينما سلمتها فضيحتها بيدي؟ وأين كان الله حينما قَلَب قلبي نحو هذه المومس الحنون؟ وأين كان الله حينما سلب مني ابنتي التي لم تأتِ؟ هو لم يسلبها مني، أنا من قتلها، أنا أستحق ما أنا فيه.

حينما رجعت إلى المنزل، قررت أن أعود إلى البيت في اليوم التالي. سيكون يوم جمعة، والجمعة جامعة. سأنتهز فرصة انشغال الناس بالصلاة، وأدخل البيت، وسآخذ هذه السماعات الضخمة التي لا أفعل بها شيئًا وأوصلها بهاتفي المحمول، وأفتعل ضجيجًا عند خروجهم من الصلاة.

بعثت إلى مريم رسالة نصية فحواها:

غدًا سيصير أمر البيت مفضوحًا، وسينام أهل القرية وهم يعلمون أنهم خضعوا للخرافات التي ابتدعها حسّان، وسيظهر الباب جليًّا للجميع. قد رأيت في رسالتك من فضائح الأفعال الكثير، وكنت قد انتويت أن أسلمها لزوجك يدًا بيد، فلما رأيتك اهتزت عزيمتي على هذا الفعل. لتكون أول

مرة في حياتي أعيد التفكير في أمر السوء، إذ إنني اعتدت فعل السوء لأنتقم من نفسي بنفسي.فيا مريم، إني قد أحببتك حقًّا وقد كسرتني مرتين، أولاهما حينما من دون قصد أعدتِ لي ذاكرتي التي كنت أخبئها بداخلي. والثانية، لما علمت أنني لم أكن لكِ إلا تفريغًا لأمراضك النفسية العظيمة، سأسافر بحثًا عن عقار يسلب مني ذاكرتي، وأظن أنك أكثر مني احتياجًا إلى ذلك، لتنسي ماهيتك وذنوبك، منعني من فضيحتك ابنتك، لكني أنصحك بشدة أن تدفني نفسك تحت التراب لأن الكرة اتسخت حتى تأذى الناس من رائحتها العطنة.

مع السلامة ..،

فردّت برسالة تقول:

يا أيها الكاتب العظيم الجليل القدر، هلا نظرت إلى نفسك وتأملتها! أنا واجهت نفسي وكتبت ما جاء من قلبي على ورق ورميته داخل البيت، أنا أعلم أن قصة البيت خرافة، لكني كنت أكتب لأنني احتجت إلى ذلك، ولم أكن أعلم أن شخصًا ما سيتسلل إلى البيت كاللصوص ليسرق أوراقي، لأنه ربما يبحث عن قصة يكتبها، أو ربما يبحث عن ذاته.

حينما قلت لك إنني أحبك شعرت بها بداخلي حقًّا، لكني لم أشعر بها حينما كتبت. على أية حال. لقد تركت زوجي لأنني لا أطيق أن يكون مُحبًّا رفيقنا الدائم، وزهدت الرجال جميعًا. لكن قل لي، إن قابل أي رجل امرأة جميلة وقالت إنها تحبه، هل سيقول لها عفوًا أنا متزوج؟ نادرًا ما يحدث.

لا أقول إن ما فعلته صحيح، لكنك كنت تخون زوجتك، وقد قلت لي هذا من قبل، أنا لا أريد شيئًا ليمحو لي ذاكرتي، وقد كففت عن البكاء والشعور بالذنب والتقيت بنفسي، ويرجع الفضل لك، من خلالك ومن خلال نقاشاتنا الطويلة، نجوت بالرسم وقد مرضت بحبه. حتى شفاني مما كنت فيه. كنت أدعو الله أن يمنعني من الخطأ لأنني كنت مقتنعة بمبدأ الجبرية (الذي شرحته لي) في كل شيء، لكني علمت أنني هنا وحيدة ولم يمنعني الله من فعل شيء، إلا إذا منعت نفسي أولًا. على كل حال أعتذر لك، لكن ما الذي افتقدته إلى هذه الدرجة؟ هل أحببتني حقًا في هذا الفترة القصيرة؟!

على كل حال،لقد ساعدتني كلماتك في قرار الانفصال، لأنني وجدت سعادتي الحقيقية في الوحدة، أكتفي بابنتي الآن، شكرًا لك وآسفة..

...

شكرًا!! وآسفة!

وتركت زوجها لأنها لا تتحمل القرب من مُحِب وهو ملك لامرأة أخرى! ولأنها تحب الرسم! كم هي امرأة غريبة!

تتساءل:

إن كنت حقًا أحببتها حتى النهاية؟ ليرتح قلبها المريض بإدراكه لعذابي.

هي مريضة. أظن أنها لم تحب حتى محبًّا، لكنها غارت لما علمت بأمر زواجه. فلتذهبي إلى الجحيم يا مريم، لا بد أن ابنتها في حياتها الأولى كانت

سيئة مثلها، ولذلك عوقبت بأن تكوت ابنة مريم. يا ليتني أتخلص من فكرة تناسخ الأرواح هذه التي تسيطر عليَّ.

***

إنه في يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة خمس عشرة وألفين.

ما كان قدومي إلى هنا لإصلاح شيء، لكني بعد أن رأيت بعيني هذا الخبل، وهذه القناعة التي بنيت على وهم، علمت أن هذا الحي هو صورة مصغرة لبلادنا العتيقة الصاخبة بدون صوت، المتحركة بثبات كالأرض التي تدور ولكن دون فائدة، الواقفون فيها أمام الباطل نظنهم أبطالًا، وهم على باطل، بلادنا العمياء ذات اليد القصيرة التي لا تملك بصرًا ولا بصيرة. فربما لو هدمت ثوابتهم الواهية هنا أكون قد ساعدتهم بعض الشـــيء. فمن يخافون هدم الثوابت، ويسكنون فيها، وبها، لا يبرحون الموضع الذي يثبتون فيه ولهذا تنهض الأمم ونحن– في مواضعنا مع الثوابت – خامدون، خاسرون، متأخرون.

الذي يميز الإنسان عن الحيوان ليس العقل بل هي اللغة التي تُصاغ بالكتابة، ولهذا بُنِيَت الحضارات واُستُكمِلَت العلوم استنادًا إلى ما كُتُب فكيف لهم لا يقرؤون؟! هم يعلمون فقط كيف ينشغلون بتوافه الأمور. يعلمون كيف يلهون أنفسهم في مباريات الكرة وينفعلون معها، يهللون حين الفوز ويبكون بالدموع وقت الخسارة وتنتابهم الحسرة، وكأنما بغداد لم تعد رمزًا للبغددة، وكأنما فلسطين قد احتلت، ورائحة الدم تكسوها، أو

كأنما قد تفرّق العرب، أو كأنهم قد أصابهم العمى والبكم؛ لأنهم عن عمد قد وضعوا أصابعهم في آذانهم حتى نزفت، وفقئوا أعينهم بأيديهم ثم قطعوا ألسنتهم.

أهل النديم لا يقرؤون، وكم شخص في بلادنا يقرأ؟ ولو كانوا قد قرؤوا ما كتبوه،لكانوا علموا،ولو كان اللاحقون يقرؤون ما كتبه الأولون وابتدؤوا من حيث انتهوا مثلما تفعل الأمم المتحضرة، لأدركوا معنى الإنسانية.

لكن كل منهم لا يقرأ إلا الكتب المدرسية التي تعد من قبل الراعي وهم كالأنعام أو أشد سبيلاً، لأن الأنعام قد خُلقت لهذا. فأما هم، فقد خلقوا مكرمين،بداخلهم القدرة على الرقيّ لكنهم يعيشون ليقتلوا أنفسهم في دوامة الحياة. ثم يموتون كأضحية ليتسلم أبناؤهم مكانهم في القطيع.

هم كأبطال مسرحية شعرية بلغة الضاد،كتبها مؤلف واحد ومثلها ممثلون كثيرون، لا يجيدون اللغة، ولا يعرفون أماكن مخارج الألفاظ فلا يفهمون بعضهم البعض، ولا يجدون مترجمًا يعي كلامهم، فيضيع ما كتبه المؤلف، أو يُفهَم بصورة خاطئة.

ذهبت إلى الحي، في وقت صلاة الجمعة، وركنت سيارتي أمام البيت، ومعي مكبر الصوت (السماعات الضخمة) ومُشغّل الأغاني، وانتظرت بالداخل بعد أن كسرت قفل الباب الحديدي وتركته مفتوحًا حتى رأيت الناس تخرج من المسجد المقابل للبيت.

أخذت وقتًا طويلًا في اختيار الأغنية أو الموسيقا التي سأشغلها، فكرت في أن أشغل لهم أغانيهم الشعبية التي يحبونها، لكني رأيته شيئًا سيستفزهم كثيرًا،وربما تطاولوا عليَّ،لكني وجدت أغاني أم كلثوم مُسجلة عل المشغل، فاخترت أغنيتها العظيمة، الأطلال.

يُقال إن إبراهيم ناجي كتب هذه القصيدة في حب صباه عندما فارقه. فقد ذهب ليدرس الطب، وعندما عاد علم أن حبيبته قد تزوجت، وفي إحدى الليالي سمع طرقًا شديدًا على باب منزله فقام من سريره، فكان رجلًا يريد طبيبًا لمساعدة زوجته التي كانت في حالة ولادة متعثرة. فأخذ حقيبته وذهب مع الرجل إلى بيته، حيث كانت زوجته بوضع صعب. اقترب منها فعرف أنها حبيبته، فعالجها وتمت ولادتها وخرج من بيتها بعد أن اطمأن على صحتها وصحة مولودها وكتب قصيدة الأطلال بعد هذه الحادثة الغريبة، وقد بدل أحمد رامي في القصيدة (يا فؤادي لا تسل أين الهوى) وفي الأصل كانت (يا فؤادي رحم الله الهوى).

قمت برفع درجة الصوت عن آخره، وكسرت الباب وخرجت من البيت وفي يدي الباب المكسور، أمشي خلفه وأزحزحه من أمامي، لأريه للناس ولأحتمي به إن ضربوني، وصحت في الناس أقول:

يا أهل النديم،هذا باب بيت النديم الذي ظننتموه غير موجود، وبداخل البيت رسائلكم، لم تبرح مكانها، لأن الورق لا يمكنه الحركة، لم تُرسل إلى يد الله، فإذا كنتم تبحثون عن يد الله فهي يدكم، وإن كنتم ترجون مغفرة ودعاء، فهو معكم أينما كنتم، يا قوم لا بد من النورين معًا، نور القراءة

ونور الكتابة، نور الكلام ونور الاستماع، يجب على كل فرد أن يكون مستقبلًا ومرسلًا في آن واحد.

لا يوجد أحد لا يستحق الحياة، نحن كمعزوفة موسيقية، إذا أفلت منها صوت تلفت، أو كآلة الكترونية إذا تلف جزء صغير منها تلفت كلها.

أراهم الآن ملتفين حول البيت، يطوفون في بحث عن مصدر الصوت، متعجبين وخائفين، ارتطم بي أحدهم ليدخل البيت ثم انحشروا جميعًا في محاولة الدخول، كل منهم يبحث عن ورقة في تعجب.

شاب يحرك الشجرة ويحاول كسرها، وقال بصوت عال:

- كنت أعلم أن هذا البيت وهم وكذلك كل شيء. أحييك أنك قد كشفت لهم الحقيقة.

قلت له:

- أنت زين؟

قال:

- نعم أنا زين الحر.

ضحكت وتركته حتى زين الملحد ألقى ما كتبه في البيت. من لم يجد وهمًا يعبده، خَلقَ وهمه الخاص، ساعده بعض الشباب في الفتك بالشجرة، فأشفقت عليها، لكنها متآمرة لئيمة.

قابلت الشيخ يحيى قبل أن أركب السيارة.

قلت له:

- أراك لاحقًا يا شيخ يحيى، لكني ربما لا أتذكر حينها من أنت.

- فلتجُب الأرض بحثًا عن الحقيقة، لا عن طمس ما ابتدأ منها في الظهور.

بإمكانك أنت التحليق بقلمك كيفما شئت.

أنت كاتب يا بُني، تكمن بداخلك قوة خارقة.

يمكنك التنقل بين نفوس البشر، يمكنك السفر عبر الزمان والمكان وبيدك قرائك.

- قرائي؟ كم من الناس يقرأ؟ ما فائدة الكاتب بدون قراء؟

- لكنك شاب وقريب من الشباب ويحبونك.

- وصلت لهم بالكذب، بعدما بدأت أول روايتين ولم ألقَ أي نجاح، ربما أنت القارئ الوحيد لهما.

- الروايتان ستبقيان،وما دونهما سَيُنسى. المريد الذي يخلو من الإرادة، ما منه وما له إفادة، وهو كالذي يبتغي الزراعة بدون فأس وبدون بذرة أو كفاكهة فسدت من الداخل وما بقي منها إلا قشرة، يا بني إذا أردت التحليق، فلتحدق قبل أن تحلِّق.

- ماذا تعني؟

- الذاكرة هي عين العقل، الذاكرة هي التذكرة.

- أنت لا تعلم شيئًا يا شيخ، همي ازداد، أنا مجهول المصير، متعثر الخطى، مريض العقل وكوصف مريم لنفسها أنا أيضًا أدرك مرضي، وأعلم مكامن خللي النفسي؛ لذا وجب عليَّ النسيان لكي أتطهر.

لقد واجهت ظروفًا لا يتحملها أحد، ثم أضفت بيدي أوجاعًا لا توصف.

- كفيف رأى فكتب فأصبح عميد الأدب العربي، وعاجز فكّر، فأصبح من أشهر علماء الفيزياء، وأنت يا بني تتحجّج بظروفك، وبماضي لا يمكنك التخلص منه؟ لا تتخلص منه يا ولدي ماضيك هو أنت، إن كنت فطنًا سيمنعك ماضيك من تكرار أخطائك، وإن خسرت ماضيك ستهلك.

أنا أحتوي على كل سوء ذُكِرت به، وما أخفيه أعظم، أنا سيء كفأر يأكل من القمامة وينقل الأمراض، أدعي الشجاعة وأنا جبان، المشكلة ليست في الظروف، المشكلة في أنا. ممتلئ أنا بالخطايا، وإذا ما ارتقيت قبل الوفاة، سأكون فأرًا لا محالة، فيجب عليَّ التطهر من كل ذكرياتي وسأدور في كل أنحاء الأرض بحثًا عن دواء يفقدني ذاكرتي، وأبدأ من جديد، أنت لا تعي شيئًا، أنا لا أتحمل ذنوبي وخطاياي، ويجب أن أتخلص منهما، ألا تسمع أم كلثوم تقول: "فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو".

يحيى ضاحكًا:

- بيدك أنت التخلص منها، بيدك أنت الخلاص، لا بفقدان الذاكرة، لا تكن جهولًا ظلومًا، أعد التفكير يا بني وإلا أصبحت في "سراب بقيعةٍ" ...



للتواصل مع الكاتبة

https://www.facebook.com/aya.yasser.562